الفصل الأول

الشمس تحتضر

كانت الشمس، تلك الكرة الصفراء التي رافقت الجنس البشري منذ أول صرخة له على سطح الأرض، قد بدأت تموت ببطء.

في البداية لم يلاحظ أحد. كانت التغيرات طفيفة: أيام أطول قليلاً، ليالٍ أبرد مما اعتاده الناس، ثم موجات حرارية غريبة تجتاح الكواكب الداخلية ثم تنحسر فجأة. لكن العلماء كانوا يراقبون. راقبوا لعقود، ثم لقرون، حتى جاءت اللحظة التي لم يعد فيها الإنكار ممكناً.

مركز الشمس ينكمش. الهيدروجين الذي غذى نارها بلايين السنين كان ينفد. الطاقة المتحررة تدفع الطبقات الخارجية إلى التمدد، فتكبر الشمس وتبرد من الخارج، ويتحول لونها تدريجياً من الأصفر الذهبي إلى الأحمر القاني. أصبحت «عملاقاً أحمر».

على سطح عطارد، أقرب الكواكب إليها، كان الأثر أشد قسوة.

كان أشرف يقف خلف النافذة السميكة في برج المراقبة المركزي، ينظر إلى المدينة المعدنية ذات القباب التي تغطي الكوكب كله. السطح النحاسي الموحش، الذي كانت حرارته يوماً تتجاوز ثلاثمائة درجة مئوية، أصبح الآن مغطى بطبقات من الجليد الرمادي المتجدد. لا أحد يسير في العراء منذ أجيال. الحياة كلها انسحبت إلى الداخل، إلى المدن الحرارية التي تعمل بمفاعلات اليورانيوم والبلوتونيوم، وتُدار بكمبيوترات ضوئية تعمل بالرقاقات البيولوجية.

كان الهواء داخل البرج دافئاً ومصطنعاً، يحمل رائحة المعدن والفلاتر القديمة. خلفه، على الشاشات المجسمة، كانت بيانات الشمس تتدفق بلا انقطاع: درجة الحرارة السطحية تنخفض، القطر يزداد، الإشعاع يتغير. كل رقم كان يعلن نهاية عصر.

ابتسم أشرف ابتسامة مرة وهو يتذكر ما قاله له والده قبل أن يموت قبل عشرين عاماً:

«عطارد كان يوماً كوكباً نارياً يا بني. الآن أصبح قبراً جليدياً ينتظر الشمس أن تموت تماماً».

في الزهرة كان الوضع مختلفاً قليلاً، لكنه ليس أفضل. الغلاف الجوي الكثيف الذي كان يحبس الحرارة ذات يوم أصبح الآن يحبس البرودة. المدن العائمة داخل السحب تجمدت أطرافها، واضطر السكان إلى النزول أعمق فأعمق نحو السطح، حيث الضغط هائل والظلام دائم.

أما على الأرض، ذلك الكوكب الأزرق الذي ولد عليه الإنسان، فقد بدأت المحيطات تتجمد من القطبين نحو خط الاستواء. المدن الساحلية هُجرت، وانتقل الناس إلى المدن القبابية الضخمة التي بُنيت في الصحارى والجبال. الأطفال الذين وُلدوا في السنوات الأخيرة لم يروا سماءً حقيقية قط. كانوا يعرفون الشمس فقط من الشاشات والكتب القديمة: قرص أصفر دافئ، لا هذا العملاق الأحمر البطيء الذي يملأ نصف السماء ويبعث ضوءاً خافتاً كأنه يحتضر.

في برج المراقبة على عطارد، ضغط أشرف على زر الاتصال. ظهرت صورة وليد، مندوب الزهرة، على أحد أقسام الشاشة. كان وجهه شاحباً، وعيناه محمرتين من السهر.

قال وليد بصوت خافت:

«البيانات الجديدة وصلت. العلماء يؤكدون أن مرحلة القزم الأبيض أقرب مما توقعنا. ربما خمسون عاماً.. ربما أقل».

صمت أشرف لحظة، ثم رد:

«خمسون عاماً ليست شيئاً في عمر الكون. لكنها كل ما تبقى لنا».

نظر وليد إليه طويلاً، ثم أضاف:

«المجلس الأعلى سيجتمع بعد ثلاثة أيام. خالد يدعو كل المندوبين. يقول إن الوقت قد حان لاتخاذ قرار».

أشرف لم يجب فوراً. كان ينظر من النافذة إلى الفضاء الرمادي، حيث تظهر الشمس كقرص هائل أحمر، بطيء الحركة، لا يمنح إلا قدراً ضئيلاً من الضوء والحرارة. خلفها، في الأعماق البعيدة، كانت النجوم تلمع كأنها تسخر من مصيرهم.

تذكر المقدمة التي كتبها أحد العلماء القدامى منذ قرون، والتي كانت تُدرَّس للأطفال في المدارس:

«الكون بحر أبدي لا نهائي.. يجب أن نفتح عقولنا حتى تتسع لكل ما لم نكن نصدقه من قبل».

الآن، وأمام شمس تحتضر، كان على عقولهم أن تتسع لشيء أفظع: أن يتركوا هذه الشمس إلى الأبد، ويحملوا كواكبهم التسعة كلها، وينطلقوا في الظلام بحثاً عن شمس جديدة.

Panorama الضغط على الزر مرة أخرى، وأغلق الاتصال. استدار نحو الغرفة الواسعة الممتلئة بالأزرار والشاشات والعلماء الصامتين.

همس لنفسه، بصوت لم يسمعه أحد:

«لقد بدأت الرحلة الرهيبة.. حتى قبل أن نتحرك».

في الخارج، كانت الشمس الحمراء تدور ببطء، كأنها تودع أطفالها التسعة للمرة الأخيرة.

الفصل الثاني

المجلس الأعلى

بعد ثلاثة أيام بالضبط، هبطت السفن الفضائية الواحدة تلو الأخرى في المطار الحراري المجاور لبرج المجلس على سطح عطارد.

كان البرج مستديراً، جدرانه من سبيكة زرقاء لامعة تتناثر عليها شاشات الكمبيوتر المجسمة، وسقفه مفتوح جزئياً على الفضاء الرمادي البارد. في وسط القاعة مائدة بيضاوية ضخمة من معدن أسود مصقول، حوله تسعة مقاعد، كل مقعد يحمل شعار كوكبه: سهم المريخ، مربع أورانوس، دائرة المشتري، وحلقة زحل الدقيقة.

أشرف كان أول الواصلين. وقف بجانب النافذة الكبيرة كما فعل قبل أيام، يراقب السفن وهي تهبط. كان يرتدي السترة الخضراء القصيرة بدون أكمام والبنطلون الرمادي الطويل، وعلى كتفه الأيسر علامة عطارد الصغيرة: دائرة بسيطة محاطة بخط رفيع. شعر للحظة بأنه أصغرهم جميعاً، وأن كوكبه الضئيل لا يستحق أن يستضيف هذا الاجتماع المصيري.

دخل وليد أولاً. مندوب الزهرة كان رجلاً في الأربعين، وجهه مستدير وعيناه ذكيتان، يبتسم دائماً حتى في أحلك اللحظات. صافح أشرف بحرارة وقال:

«ما زلت تحدق في الفضاء كأنك تنتظر معجزة. الشمس لن تعود يا صديقي».

ابتسم أشرف ابتسامة باهتة. «ربما أنتظر نهاية أوضح».

ثم جاء عادل، مندوب الأرض. طويل القامة، نشيط الحركة، تلمع في عينيه الرماديتين روح المغامرة التي اشتهر بها أهل كوكبه. خلفه سار ماجد المريخي، رجل عصبي سريع الغضب، ثم تامر نبتون وأمير أورانوس، ثم مازن مندوب المشتري، الرجل الضخم الذي كانت خطواته تهز الأرض تحت قدميه.

أخيراً دخل الرئيس خالد.

كان رجلاً عجوزاً نحيلاً، أبيض الشعر، نبيل الوجه، يحمل على كتفه شعار زحل بحلقتيه. مشى ببطء نحو المقعد الرئيسي، وجلس دون أن يتكلم. صمت الجميع. حتى شوقي، مندوب بلوتو، الذي دخل أخيراً بخطواته المتغطرسة المعتادة، توقف عن السخرية للحظة.

نظر خالد إليهم واحداً واحداً، ثم قال بصوت هادئ لكنه يحمل ثقلاً هائلاً:

«ليس هناك داعٍ لأن أعيد ذكر السبب في حضورنا. شمسنا تحتضر. وتهدد شعوب إمبراطورية الفضاء بالبرودة المتزايدة. مالم نفعل شيئاً، فسرعان ما يهلك سكان الكواكب التسعة».

صمت قصير. ثم أضاف:

«لقد طرح العلماء خطة واحدة فقط يمكنها أن تضمن استمرار الحياة. خطة مجنونة. خطة رهيبة. أن نحرر كواكبنا من قبضة الشمس، وننطلق بها في الفضاء كسفن عملاقة، بحثاً عن شمس جديدة».

رفع مازن رأسه الضخم. «خطة نظرية. لم تُختبر من قبل. وأنا كممثل لأكبر كوكب..».

قاطعه شوقي بضحكة قصيرة ساخرة. «أكبر كوكب؟ وماذا يعني الحجم يا مازن؟ عطارد الصغير هذا الذي نجتمع فوقه الآن أكبر مما تظن. يكفي أن يسعنا جميعاً».

نظر أشرف إلى شوقي بحدة. كان شوقي رجلاً طويل الوجه، عيناه سوداوان ضيقتان، وصوته دائماً يحمل نبرة استهزاء. منذ سنوات والعلاقة بينهما متوترة. شوقي لا يفوّت فرصة ليذكّر الجميع بأن بلوتو، رغم بعده، أهم من عطارد «الضئيل».

قبل أن يرد أشرف، تدخلت امرأة كانت تجلس في الصف الثاني خلف المندوبين. كانت د. سارة، عالمة الفيزياء النووية من كوكب الأرض، في منتصف الثلاثينيات، شعرها الأسود مربوط بإحكام، وعيناها الحادتان لا تفارقان الشاشات.

قالت بصوت واضح:

«الخطة ليست نظرية تماماً. أجرينا آلاف المحاكاة على الكمبيوترات الضوئية. تفاعلات الاندماج النووي داخل الكواكب ممكنة تقنياً. الخطر موجود، نعم، لكنه أقل من خطر البقاء هنا حتى تتحول الشمس إلى قزم أبيض».

بجانب سارة جلست نجوى، قائدة الأسطول الفضائي المشترك، امرأة طويلة القامة، صارمة الملامح، ترتدي الزي العسكري الرمادي. لم تتكلم بعد، لكنها كانت تدون ملاحظات بسرعة.

رفع خالد يده بهدوء. «سنصوّت بعد أن نسمع كل الآراء. لكن قبل ذلك، أريد أن أسمع من كل واحد منكم: هل أنتم مستعدون لحمل مسؤولية شعوبكم في رحلة قد تعني الحياة أو الفناء؟».

نظر أشرف إلى المائدة، ثم إلى الشمس الحمراء البعيدة خلف الزجاج. شعر بثقل غريب على صدره. كوكبه الصغير سيكون الأخير في الطابور، الأضعف، الأكثر عرضة للخطر. ومع ذلك، كان قراره قد اتخذ منذ اللحظة التي رأى فيها الجليد يغطي شوارع مدينته.

قال بصوت هادئ لكنه ثابت:

«عطارد يصوّت مع الخطة. ليس لأننا الأقوى، بل لأننا لا نملك خياراً آخر».

ابتسم شوقي ابتسامة جانبية، وهمس بما يكفي ليسمعه أشرف فقط:

«الشجاعة سهلة حين يكون كوكبك صغيراً يا أشرف. لا أحد يلاحظ إن اختفى».

أشرف لم يرد. نظر فقط إلى خالد، الذي كان يراقب المشهد بصمت، وعيناه تحملان حزناً عميقاً لا يخفيه البياض الذي غطى شعره.

في الخارج، كانت الشمس الحمراء تواصل دورانها البطيء، كأنها تنتظر قرارهم.

الفصل الثالث

خطط فاشلة

في الأيام التي تلت الاجتماع الأول، تحول برج المجلس على عطارد إلى خلية نحل لا تنام.

الشاشات المجسمة كانت تعمل بلا انقطاع، تعرض محاكاة تلو الأخرى. العلماء من الكواكب التسعة يتوافدون يومياً عبر السفن الفضائية، يحملون معهم بيانات جديدة ونظريات قديمة أُعيد إحياؤها في لحظة اليأس. د. سارة كانت تقود معظم الجلسات التقنية، صوتها الحاد يقطع الضجيج كلما ارتفعت الأصوات.

في إحدى الليالي الطويلة، جلس أشرف ووليد وعادل حول طاولة جانبية في غرفة الاجتماعات الصغيرة. أمامهم أكواب من سائل دافئ مصنوع من طحالب المدن المقببة، طعمه معدني لكنه يبقيهم مستيقظين.

قال عادل وهو يفرك عينيه:

«لقد جربنا كل شيء تقريباً. مشروع المرايا الفضائية العملاقة لعكس المزيد من ضوء الشمس.. فشل. الطاقة المطلوبة لبنائها أكبر مما نملك. مشروع حقن الهيدروجين في قلب الشمس.. مستحيل تقنياً. المسافة والضغط يدمران أي مسبار قبل أن يصل».

هز وليد رأسه. «وماذا عن أسطول الهجرة؟ السفن العملاقة التي تنقل الشعوب كلها إلى أقرب نجم؟».

interven د. سارة من الباب دون أن يطرقه أحد. كانت تحمل لوحة بيانات مضيئة.

«حسبنا الأمر ألف مرة. حتى لو بنينا أكبر أسطول في تاريخ الإمبراطورية، فلن يكفي إلا لعُشر السكان. والباقي؟ يُتركون هنا ليموتوا ببطء. هل هذا حل؟».

صمت الجميع. كان السؤال معلقاً في الهواء كضباب بارد.

في الجلسة التالية للمجلس، طرح مازن فكرة مختلفة. وقف الرجل الضخم وقال بصوت جهوري:

«لماذا لا نبني مدناً تحت سطح الكواكب؟ أعمق فأعمق، حيث تبقى الحرارة الأرضية؟ نعيش كالفئران في جحورنا حتى تنتهي الشمس تماماً، ثم نرى».

ردت نجوى، قائدة الأسطول، ببرود عسكري:

«الحسابات تقول إن الحرارة الداخلية لن تكفي بعد تحول الشمس إلى قزم أبيض. البرودة ستصل حتى إلى اللب. بالإضافة إلى أن الأقمار ستتجمد أولاً، والكواكب الغازية العملاقة ستفقد أغلفتها تدريجياً. سنموت جميعاً، لكن ببطء أكثر».

رفع شوقي يده بسخرية واضحة.

«إذن نحن أمام خيارين جميلين: نموت بسرعة أو نموت ببطء. أحب هذا المجلس».

نظر خالد إليه نظرة طويلة، ثم تحدث للمرة الأولى منذ ساعات:

«هناك خيار ثالث. الخطة التي قدمها علماء زحل والأرض معاً. تحريك الكواكب نفسها».

همهمة منخفضة اجتاحت القاعة. أشرف شعر بقلبه ينقبض. كان يعرف التفاصيل من التقارير السرية، لكن سماعها بصوت الرئيس جعلها حقيقية فجأة.

د. سارة تقدمت نحو وسط القاعة، وأضاءت شاشة كبيرة. ظهرت عليها رسوم متحركة للكواكب وهي تنطلق من مداراتها بقوة اندماج نووي هائلة.

«نحفر خنادق عميقة في أربعة مواقع بكل كوكب. نضع فيها أجهزة اندماج الديوتيريوم والتريتيوم. نرفع الحرارة إلى مائة مليون درجة بالليزر أو بالقوارير المغناطيسية في الكواكب الغازية. الطاقة الناتجة تدفع الكوكب كله كسفينة فضاء عملاقة. نأخذ أقمارنا معنا. ننطلق في طابور مرتب نحو أقرب النجوم المناسبة».

صمت مطبق. ثم انفجر مازن:

«هذا جنون! كيف نضمن ألا يتمزق الكوكب؟ كيف نتحكم في الاتجاه؟ ماذا عن الجاذبية المتبادلة بيننا؟».

ردت سارة بهدوء علمي لا يلين:

«المحاكاة أثبتت الإمكانية. التحكم من أبراج مركزية في باطن كل كوكب. المسافات تُحسب بدقة الكمبيوترات الضوئية. الخطر موجود، لكنه محسوب».

هنا تدخل أمير، مندوب أورانوس، وكان صوته يرتجف قليلاً:

«هل يحق لنا أن نفعل هذا؟ أن ننتزع كواكب من شمسها ونرميها في الفراغ؟ نحن نتحدث عن تغيير نظام كوني كامل. أليس هذا تجاوزاً لحدود الإنسان؟».

نظر خالد إلى السقف لحظة، ثم قال بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه:

«منذ أن نظر الإنسان الأول إلى السماء وتساءل، وهو يحاول فهم النظام الإلهي. الآن نحن أمام خيار: نستسلم للموت داخل هذا النظام، أو نستخدم العقل الذي وهبنا الله إياه لنبحث عن حياة جديدة. المقدمة التي كتبها العلماء القدامى تقول إن علينا أن نفتح عقولنا لما لم نكن نصدقه. هل نغلقها الآن؟».

همس شوقي بما يكفي ليسمعه الجالسون بقربه:

«الكلام الجميل لا يدفع كوكباً».

لكن أشرف كان يراقب وجوه الآخرين. رأى الخوف في عيني تامر، والتردد في وجه ماجد، والإصرار الصامت في عيني نجوى. ورأى في عيني وليد شيئاً يشبه الأمل لأول مرة منذ شهور.

في نهاية الجلسة، لم يُتخذ قرار بعد. لكن الجميع شعروا أن الخطط الأخرى قد ماتت. لم يبقَ إلا هذه الخطة المجنونة، أو الموت البطيء تحت شمس حمراء تحتضر.

بعد انفضاض المجلس، بقي أشرف وحيداً في القاعة. نظر إلى الشعار الصغير على كتفه، ثم إلى الشمس البعيدة خلف الزجاج.

همس:

«إن كان هذا تجاوزاً.. فليكن. فالموت دون محاولة هو التجاوز الحقيقي».

الفصل الرابع

الخطة المجنونة

في اليوم التالي، عُقدت الجلسة التقنية الكبرى.

امتلأت قاعة المجلس بالعلماء والمهندسين من الكواكب التسعة. الشاشات المجسمة كانت تعرض رسوماً ثلاثية الأبعاد لباطن كل كوكب، والخوادق المقترحة تبدو كجروح عميقة في لحمه. د. سارة وقفت في الوسط، مرتدية معطفاً أبيض فوق السترة الخضراء، وصوتها يملأ المكان بثقة هادئة.

قالت:

«الخطة تعتمد على مبدأ بسيط في جوهره، مرعب في تطبيقه. نحول كل كوكب إلى محرك اندماج نووي عملاق».

أضاءت الشاشة صورة خندق هائل.

«في كل كوكب نحفر أربعة خنادق: اثنان عند القطبين، واثنان على مسافات متساوية من خط الاستواء. طول كل خندق عشرة كيلومترات، عرضه سبعة، وعمقه عشرون كيلومتراً. نبطنها بغلاف من الليثيوم النقي، فيتحول الخندق إلى أنبوب معدني عملاق مغروس في جسد الكوكب».

توقف صوتها لحظة، ثم استأنفت:

«في قاع كل أنبوب نضع جهاز اندماج نظائر الهيدروجين: الديوتيريوم والتريتيوم. نرفع درجة الحرارة إلى مائة مليون درجة باستخدام أقراص ليزر هائلة أو، في حالة المشتري والكواكب الغازية، بطريقة القارورة المغناطيسية. البلازما تُحبس داخل تجويف أنبوبي، والمغناطيسات الفائقة تمنع تسربها. الطاقة الناتجة تُوجَّه للخلف، فيندفع الكوكب كله إلى الأمام».

همهمة منخفضة اجتاحت القاعة. مازن، مندوب المشتري، كان يفرك جبهته بقوة.

«المشتري يحتاج إلى طاقة تفوق ما تحتاجه كل الكواكب الأخرى مجتمعة. هل أنتم واثقون أن القارورة المغناطيسية ستصمد؟».

ردت سارة دون أن تتردد:

«المحاكاة تقول نعم. لكننا سنحتاج إلى ضعف عدد المغناطيسات التي خططنا لها في البداية. وسنبني برج تحكم مركزياً في باطن كل كوكب، على عمق عدة كيلومترات، حيث يمكن لرجل واحد أن يوجه حركة عالم كامل».

رفع أشرف رأسه. فكرة أن يكون هو ذلك الرجل على عطارد جعلت حلقه يجف.

بعد الجلسة، انتشرت التفاصيل كالنار في الهشيم عبر شبكات الاتصال بين الكواكب. في المدن المقببة، تجمع الناس أمام الشاشات العامة يشاهدون الرسوم المتحركة للكواكب وهي تنطلق في الفضاء. بعضهم صفق، وبعضهم بكى، وبعضهم راح يصرخ.

على سطح الأرض، في إحدى المدن القبابية الكبرى، اندلعت تظاهرة صغيرة. مئات الأشخاص حملوا لافتات كُتب عليها «اتركوا الشمس وشأنها» و«لا تلعبوا دور الآلهة». قمعت قوات الأمن التظاهرة بسرعة، لكن التسجيلات وصلت إلى كل الكواكب.

في بلوتو، حيث البرد أشد والظلام أعمق، كان رد الفعل مختلفاً. شوقي ظهر على الشاشات العامة وقال بصوته الساخر المعتاد:

«أخيراً خطة تستحق اسمها. إما أن نموت هنا كالفئران، أو نموت هناك كأبطال. أنا مع الخيار الثاني».

أما على عطارد، فقد كان الهدوء مريباً. الناس معتادون على القسوة منذ زمن طويل. لكن في الأحياء السفلية، بدأت همسات عن «الانتحار الجماعي باسم العلم». أشرف سمعها بنفسه وهو يمر في أحد الممرات الحرارية. توقف أمام مجموعة من العمال، وقال بهدوء:

«الانتحار هو أن نبقى. الرحيل هو محاولة للحياة».

نظر إليه أحد العمال المسنين طويلاً، ثم قال:

«كوكبنا صغير يا مندوب. إن تمزق في الطريق، لن يلاحظ أحد».

ابتسم أشرف ابتسامة مرة. «لهذا السبب بالذات يجب أن ننجح».

في الليلة نفسها، جلس أعضاء المجلس مرة أخرى في القاعة المستديرة. خالد كان يبدو أكبر سناً من ذي قبل. قال:

«الشعوب منقسمة. التمردات الصغيرة بدأت. الوقت يعمل ضدنا. إن لم نتخذ القرار قريباً، قد نفقد السيطرة قبل أن نبدأ».

نظرت نجوى، قائدة الأسطول، إلى الجميع وقالت بصوت عسكري حاد:

«الأسطول جاهز لدعم أي قرار. لكنني أحتاج إلى معرفة واحدة: هل سنمضي في هذه الخطة أم لا؟ لأن الاستعدادات يجب أن تبدأ فوراً، وإلا فلن نلحق».

صمت طويل. ثم رفع وليد يده.

«الزهرة توافق على البدء في الاستعدادات التقنية، حتى قبل التصويت النهائي».

تبعه عادل، ثم ماجد، ثم تامر وأمير. مازن تردد طويلاً، ثم أومأ برأسه ببطء. شوقي رفع يده بابتسامة جانبية وقال:

«بلوتو يوافق. على الأقل سنموت ونحن نتحرك».

بقي أشرف. نظر إلى خالد، ثم إلى الشمس الحمراء خلف الزجاج، ثم قال:

«عطارد يوافق. وسأكون أنا من يضغط على الأزرار».

ابتسم خالد ابتسامة حزينة.

«إذن نبدأ. الخطة المجنونة أصبحت الآن خطتنا».

في الخارج، كانت الرياح الجليدية تعوي حول قباب المدينة، كأنها تحاول أن تدخل وتسمع القرار. لكن القرار كان قد اتُّخذ. والرحلة الرهيبة، التي لم تبدأ بعد، كانت قد أصبحت أقرب مما يتخيل أي منهم.

الفصل الخامس

التصويت

في اليوم المحدد، امتلأت قاعة المجلس بصمت كثيف كأنه مادة صلبة.

لم يكن هناك علماء هذه المرة، ولا مهندسون، ولا شاشات تعرض محاكاة. فقط الأعضاء التسعة حول المائدة البيضاوية، ود. سارة ونجوى في الصف الثاني كمراقبين.

الشمس الحمراء كانت تطل من النافذة الكبيرة، أكبر وأكثر خفوتاً مما كانت عليه قبل أسابيع، كأنها حضرت بنفسها لتسمع الحكم.

خالد جلس في مقعده الرئيسي، يديه مضمومتين على المائدة. بدا وجهه منحوتاً من حجر قديم. قال بصوت منخفض لكنه وصل إلى كل زاوية في القاعة:

«اليوم لا نناقش. اليوم نقرر. كل واحد منكم يحمل صوت كوكبه كله. إن صوّتنا ضد الخطة، نبقى مع شمسنا المحتضرة حتى النهاية. إن صوّتنا معها، نبدأ المغامرة التي قد تكون خلاصنا أو هلاكنا. فكروا جيداً. لا تراجع بعد اليوم».

رفع يده اليمنى أولاً.

«زحل يصوّت مع الخطة».

صمت قصير. ثم رفع وليد يده دون تردد.

«الزهرة مع».

تبعه أشرف فوراً. صوته كان هادئاً، لكنه كان يحمل شيئاً يشبه التحدي:

«عطارد مع».

رفع ماجد يده بسرعة عصبية.

«المريخ مع».

عادل ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة ورفع يده.

«الأرض مع. كنا دائماً نحب المغامرة».

تامر تردد لحظة، ثم رفع يده ببطء.

«نبتون مع».

أمير نظر إلى الطاولة طويلاً قبل أن يرفع يده.

«أورانوس مع.. مع كل المخاوف».

بقيت يدان فقط: يد شوقي ويد مازن.

شوقي رفع يده بهدوء مبالغ فيه، وابتسم ابتسامته الساخرة المعتادة.

«بلوتو مع. على الأقل سنكون في المقدمة. أرى المشهد كله قبل أن تموتوا خلفنا».

ضحك خفيف متوتر من بعض الجالسين. لكن مازن لم يضحك. كان يحدق في المائدة، يديه الضخمتين مضمومتين بقوة حتى ابيضت مفاصلهما. العرق يتصبب على جبهته رغم برودة القاعة.

الثواني مرت كساعات. أشرف شعر بأن قلبه يطرق ضد أضلاعه. صوت واحد يمكنه أن يدمر كل شيء. مازن كان منذ البداية الأكثر تردداً، والأكثر خوفاً على كوكبه العملاق وأقماره الكثيرة.

خالد لم يستعجله. اكتفى بالنظر إليه بصبر يشبه الحزن.

أخيراً، ببطء شديد، كأنه يرفع جبلاً، رفع مازن يده.

صوت تنفس جماعي ملأ القاعة. ثم نهض الجميع دفعة واحدة. لم يكن هناك هتاف في البداية، فقط صمت مذهول، ثم بدأت الأيدي تصفق، ثم العناق، ثم الضحك المختلط بالدموع.

خالد انحنى إلى الأمام وقال بصوت مبحوح:

«لقد اتخذنا القرار. وضعنا مصير الجنس البشري وكواكبه التسعة في كف الأقدار. في أقرب وقت تبدأ الرحلة».

بعد ساعات، انتشر الخبر في كل المدن المقببة عبر الكواكب التسعة.

في بعض الأحياء انطلقت الألعاب النارية الصناعية داخل القباب. الناس يرقصون ويعانقون بعضهم. في أحياء أخرى ساد صمت ثقيل، وجلس الناس على الأرض يبكون أو يصلون. على الأرض، في إحدى المدن الكبرى، خرجت مواكب صامتة تحمل صوراً قديمة للشمس الصفراء كما كانت في كتب التاريخ، ووضعوها عند أبواب القباب كأنها تودعها.

على عطارد، وقف أشرف مرة أخرى خلف النافذة الكبيرة في برج التحكم. المدينة تحته كانت تضيء بنوافذ لا تحصى. شعر بيد على كتفه. التفت فرأى وليد.

قال وليد بهدوء:

«لقد فعلناها».

رد أشرف وهو ينظر إلى الشمس الحمراء:

«نعم. والآن علينا أن نودعها حقاً».

في اللحظة نفسها، على الشاشات العامة في كل الكواكب، ظهر خالد مرة أخيرة في ذلك اليوم. قال كلمات قليلة فقط:

«الشموس تموت، لكن الحياة تبحث عن طريق. غداً نبدأ الاستعدادات النهائية. وبعدها.. نرحل».

في الفضاء الرمادي خارج النوافذ، كانت الشمس الحمراء تواصل دورانها البطيء، كأنها سمعت القرار، وكأنها، للحظة قصيرة، أضاءت أكثر قبل أن تعود إلى خفوتها المعتاد.

الفصل السادس

الاستعدادات الكبرى

مرت الأشهر كأنها أيام، والأيام كأنها سنوات.

على سطح كل كوكب من الكواكب التسعة، تحولت الإمبراطورية كلها إلى ورشة عمل هائلة لا تنام. الحفارات العملاقة، التي تعمل بالطاقة النووية، راحت تحفر الخنادق الأربعة في كل عالم: عند القطبين وعلى مسافات متساوية من خط الاستواء. الغبار المعدني كان يملأ الهواء داخل القباب المؤقتة، وعمال المناجم والمهندسون يعملون في نوبات متواصلة حتى لا يتوقف العمل لحظة.

على عطارد، كان أشرف يقضي معظم وقته في باطن الكوكب، داخل الأنفاق التي تزداد عمقاً يوماً بعد يوم. كان يرتدي بدلة واقية ثقيلة، ويتنقل بين مواقع الحفر بصحبة المهندسين. في أحد الأيام، بينما كان يقف على حافة خندق بلغ عمقه خمسة عشر كيلومتراً، شعر بيد على كتفه. التفت فرأى د. سارة.

كانت قد قدمت من الأرض قبل أسبوعين للإشراف على تركيب أجهزة الليزر في الكواكب الداخلية. وجهها مغطى بغبار رمادي، لكن عينيها كانتا تلمعان كما هما دائماً.

قالت وهي تنظر إلى العمق الأسود:

«الغلاف الليثيوم جاهز للتركيب في الخندقين الشماليين. الجنوبيان يحتاجان أسبوعاً إضافياً. أنت تبدو متعباً يا أشرف».

ابتسم ابتسامة باهتة. «التعب رفاهية لا نملكها الآن».

سارت إلى جانبه في صمت لحظة، ثم قالت بصوت أخفض:

«هل أنت خائف؟».

نظر إليها، ثم إلى الحفرة العميقة.

«خائف على من سأتركهم هنا إن فشلت. وعلى من سيأتون بعدنا إن نجحت».

لم ترد سارة، لكنها بقيت بجانبه وقتاً أطول مما يقتضيه العمل.

في الوقت نفسه، كانت العلاقة بين أشرف وشوقي تزداد تعقيداً. شوقي كان يزور عطارد بين الحين والآخر بحجة التنسيق بين أبراج التحكم. في كل مرة كان يسخر من «الكوكب الصغير الذي يحفر قبوراً لنفسه». وفي كل مرة كان أشرف يرد بهدوء يثير غيظ شوقي أكثر.

ذات مساء، بعد اجتماع تقني طويل، وجد شوقي نفسه وحيداً مع أشرف في غرفة المراقبة. قال فجأة، دون سخرية هذه المرة:

«أنت تعرف أن بلوتو سيكون الأول في الطابور. إن حدث أي خطأ في حسابات الاندماج، سأكون أنا من يموت أولاً».

رد أشرف وهو ينظر إلى الشاشة:

«وأعطارد سيكون الأخير. إن حدث خطأ، سأرى موتكم جميعاً قبل أن أموت».

نظر شوقي إليه طويلاً، ثم أدار ظهره ومشى دون أن يقول شيئاً آخر.

أما وليد، فكان الصديق الذي لا يتغير. كان يأتي من الزهرة كل أسبوعين، يجلب معه تقارير وتجهيزات، ويجلس مع أشرف في المساء يتحدثان عن كل شيء إلا الرحلة. عن طفولتهما، عن الكتب القديمة التي قرآها، عن الشمس كما كانت في صور الأجداد. في إحدى الليالي قال وليد وهو يضحك:

«إذا نجونا، سآخذك إلى بحر الزهرة القديم قبل أن يتجمد تماماً. سنسبح مرة أخيرة».

رد أشرف: «إذا نجونا».

وببطء، كانت المدن المقببة تُجهَّز للحياة في الظلام الكامل. المفاعلات النووية الإضافية تُبنى، مخازن الهواء الصناعي تُملأ، والحدائق المائية تُوسَّع لتنتج طعاماً أكثر. الأطفال كانوا يتعلمون في المدارس كيف يعيشون بلا شمس حقيقية، والكبار كانوا يخزنون صوراً وذكريات كأنها آخر ما تبقى من عالم قديم.

في الليلة التي سبقت بدء التجارب النهائية للاندماج، أُعلن عن «يوم الوداع».

في كل كوكب، خرج الناس إلى أقرب نوافذ أو شرفات مراقبة تواجه الشمس. على عطارد، امتلأت الشرفات العليا في المدينة المركزية بآلاف الأشخاص. أشرف وقف بينهم، وإلى جانبه وليد الذي قدم خصيصاً، ود. سارة، ونجوى. حتى شوقي ظهر على الشاشة من بلوتو، صامتاً هذه المرة.

الشمس الحمراء كانت تملأ الأفق، أكبر مما كانت عليه في أي وقت مضى، وأكثر خفوتاً. ضوءها كان يشبه ضوء مصباح يحتضر.

خالد تحدث عبر الشبكة المشتركة، صوته يصل إلى كل قبة في الإمبراطورية:

«هذه ليست نهاية. هذه بداية رحلة لم يقم بها أحد من قبل. نودع شمسنا التي ولدنا في ضوئها، ونحمل معنا كل ما تعلمناه منها. فلنتذكرها دائماً».

صمت طويل. ثم بدأ الناس، في كل الكواكب، يرفعون أيديهم نحو النافذة أو الشاشة، كأنها إشارة وداع جماعية.

أشرف رفع يده أيضاً. شعر بدموع بردت على خديه قبل أن تصل إلى ذقنه. همس بكلمات لم يسمعها أحد:

«إلى اللقاء.. أيتها الأم القديمة. سنبحث عن أخت لك تمنحنا الدفء من جديد».

في الفضاء البارد خارج القباب، كانت الشمس تواصل دورانها البطيء، كأنها ترد على الوداع بضوء أخير أكثر حمرة، قبل أن تعود إلى صمتها الأبدي.

الفصل السابع

الانطلاق

حان الوقت.

في برج التحكم فوق بلوتو، وقف شوقي أمام الصفوف اللامعة من الأزرار، محاطاً بعلمائه. على الشاشات المجسمة كانت تظهر صور أبراج التحكم في الكواكب الثمانية الأخرى. الجميع ينتظر الإشارة.

خالد ظهر على الشاشة المشتركة، وجهه شاحب لكنه حازم. قال فقط:

«ابدأوا».

ضغط شوقي على الأزرار الحمراء.

اهتز برج بلوتو بعنف. ثم انطلق هدير هائل من باطن الكوكب، كأنه وحش يستيقظ بعد نوم طويل. من الخنادق الأربعة اندفعت أعمدة نار بيضاء مزرقة، طاقة الاندماج النووي تتحرر دفعة واحدة. الكوكب الصغير البعيد ارتجف، ثم بدأ يتحرك.

من التلسكوبات في الكواكب الأخرى، رأوا بلوتو وهو ينفصل عن مداره القديم، يجر معه قمره شارون، وينطلق ببطء جليل نحو الظلام. نيران الاندماج كانت تتدفق خلفه كذيل مذنب عملاق.

بعد دقيقتين بالضبط، جاء دور نبتون. تامر ضغط الأزرار، واندفعت النيران من خلف الكوكب الأزرق. أقماره السبعة تشبثت به كأطفال خائفين، ودارت معه وهو يغادر. ثم أورانوس، بلونه الأخضر الفاتح وعائلته من خمسة عشر قمراً، انطلق بجلال خلفهما.

جاء دور زحل. خالد كان في برجه، يديه ترتعشان قليلاً وهو يضغط الأزرار. الحلقات الكثيفة ارتجفت مع الهدير، ثم بدأ الكوكب العملاق يتحرك، يجر معه أقماره الكثيرة. المنظر كان رائعاً ومرعباً في آن واحد: زحل يندفع عبر الفضاء الأسود، حلقاته تلمع في ضوء النيران الخلفية.

ثم المشتري. مازن تردد لحظة، ثم ضغط بكل قوته. الشلالات الهائلة من النار انفجرت من خلف الكوكب الأكبر. للحظة بدا أنه لن يتحرك أبداً، أن جاذبية الشمس ما زالت تمسك به. لكن ببطء، ببطء شديد، انفصل المشتري عن مداره، وأقماره الثمانية عشر تلاحقه كقطيع مذعور.

المريخ انطلق بسرعة، ثم الأرض. عادل كان يبتسم رغم التوتر وهو يقود الكوكب الأزرق بعيداً عن الشمس التي ولد عليها الإنسان. القمر الجميل دار معه، ولم يتخل عنه.

ثم الزهرة. وليد ظهر على الشاشة، نظر إلى أشرف من بعيد، وقال فقط:

«إلى اللقاء يا صديقي. دورك الآن».

اندفعت نيران الزهرة، والكوكب المغلف بالسحب الكثيفة انضم إلى الطابور الهائل.

بقي عطارد وحده.

في برج التحكم، كان أشرف يقف أمام الأزرار الحمراء والخضراء. حوله علماؤه ينتظرون في صمت. على الشاشة الكبيرة كان يرى الطابور الكوني: ثمانية كواكب تبتعد، نيرانها تضيء الظلام، والشمس الحمراء خلفهم جميعاً.

وضع يده على الأزرار. كانت ترتعش.

تذكر الجليد الذي يغطي مدينته، والأطفال الذين لم يروا شمساً صفراء قط، ووجه والده القديم، وضحكة وليد، وسخرية شوقي، وعيني سارة. ثم ضغط.

اهتز البرج. الهدير جاء من الأعماق كصوت نهاية العالم. نيران الاندماج اندفعت من خلف عطارد، والكوكب الصغير ارتعش ثم انطلق.

أشرف اندفع نحو النافذة. رأى الشمس من خلفه. القرص الأحمر الهائل، العجوز الواهن، يدور ببطء وهو يحتضر. كواكبه التسعة التي ولدت في ضوئه منذ عصور سحيقة كانت تتركه الآن.

رفع يده نحو الزجاج، دون أن ينبس بكلمة. الدموع كانت تسيل على وجهه وهو يهمس:

«وداعاً.. أيتها الأم. الإنسان يلقي عليك تحية الوداع إلى الأبد».

خلفه، كان الطابور الكوني يتشكل: بلوتو في المقدمة، ثم نبتون وأورانوس وزحل والمشتري والمريخ والأرض والزهرة، وعطارد في الذيل. تسعة عوالم تندفع عبر الظلام، تبحث عن شمس جديدة.

والشمس الحمراء بقيت وحيدة في مكانها، تزداد صغراً خلفهم، حتى أصبحت نقطة باهتة في بحر النجوم.

الفصل الثامن

ألفا قنطوروس – الشمس المميتة

بعد شهور من السفر في الظلام الدامس، بدأ النجم الأصفر يظهر في المقدمة.

ألفا قنطوروس. أقرب النجوم إلى شمسهم القديمة. كان يزداد حجماً يوماً بعد يوم، ضوءه الدافئ يملأ قلوب الجميع بالأمل لأول مرة منذ رحيلهم. على الشاشات في أبراج التحكم، كان العلماء يراقبون طيفه بحذر. هناك خطوط إشعاع غريبة، لكن الأمل كان أقوى من الحذر.

عندما أصبحت المسافة ستة ملايين كيلومتر، أصدر خالد أمره:

«أشرف، خذ مائة سفينة واستطلع. نحتاج إلى معرفة كل شيء قبل أن نقترب أكثر».

شوقي احتج فوراً من شاشة بلوتو:

«أنا الأقرب! لماذا ترسله هو؟».

رد خالد بهدوء لا يقبل النقاش:

«تلك أوامري».

أشرف ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يرى وجه شوقي العابس، ثم انطلق.

المائة سفينة غادرت عطارد كسرب نحل معدني، محركاتها الأيونية تدفعها بأقصى سرعة. عبرت مدار الزهرة ثم الأرض ثم المريخ، وتجاوزت المشتري وزحل وأورانوس ونبتون، حتى وصلت إلى مقدمة الطابور ومرّت بجانب بلوتو. شوقي لوح لهم من برجه ساخراً، لكن أشرف لم يرد.

كلما اقتربوا من النجم، ازداد الوخز في أجسامهم. في البداية ظنوه إجهاداً، ثم صار ألماً واضحاً. أجهزة القياس صرخت بالتحذير: إشعاع نشط غريب، عناصر ثقيلة تتحلل، موجات تفتت المادة.

هبطوا نحو أحد الكوكبين اللذين يدوران حول ألفا قنطوروس. المنظر من الشاشات كان كابوساً: سطح يتوهج بضوء أبيض خافت، مباني وطرق مبنية من مادة مضيئة متحللة، وبحر هائل من الموجات المتوهجة. وفوق هذا كله.. حياة.

مخلوقات مشعة، أجسادها تومض وتتحلل وتتغير شكلها وهي تتحرك. أسراب منها تسير بين المباني كأنها لا تلاحظ أن أجسامها تتفتت وتنبعث من جديد.

ثم صرخ أحد الملاحين:

«السفينة.. سفينتنا بدأت تتوهج!».

نظر أشرف إلى الشاشة الجانبية. جدار السفينة كان يومض بضوء أبيض يزداد شدة، وقطع صغيرة تتناثر منه كغبار لامع. السفن الأخرى من حوله كانت تتحلل أيضاً.

صرخ في جهاز الاتصال الليزري:

«ابتعدوا فوراً! كل السفن اصعدوا! الموت هنا!».

المحركات اندفعت بأقصى طاقتها. السفن ارتفعت وهي تتوهج وتفقد أجزاء من هياكلها. الوخز في أجسام الطاقم تحول إلى إحساس مرعب: كأن ذرات أنسجتهم تُنتزع واحدة واحدة. بعضهم سقط على الأرض يصرخ، وبعضهم أمسك برأسه وهو يرى يديه تتوهج.

أشرف كان يقف خلف الملاح الرئيسي، يديه قابضتين على حافة المقعد حتى ادمتا. كان يرى الكوكب المضيء يبتعد تحتهم، والمخلوقات المشعة ما زالت تتحرك كأن شيئاً لم يحدث.

عندما خرجوا من منطقة الإشعاع القوية، توقف التوهج تدريجياً. السفن كانت قد فقدت أجزاء من هياكلها، لكن معظمها نجا. أجسامهم توقفت عن التحلل، لكن الإحساس المرضي بقي ساعات طويلة.

في الطريق إلى العودة، أرسل أشرف تقريراً عاجلاً إلى خالد:

«النجم قاتل. إشعاع يفتت المادة. حياة غريبة مبنية على التحلل نفسه. لا تقتربوا. انحرفوا فوراً».

خالد لم يتردد. أصدر الأمر لكل الكواكب:

«انحرفوا بزاوية ثلاث وأربعين درجة. ابتعدوا عن ألفا قنطوروس بأقصى سرعة».

الطابور الكوني انحنى ببطء جليل، نيران الاندماج الجانبية تشتعل في كل كوكب لتصحيح المسار. من بعيد، كان ألفا قنطوروس ما زال يتوهج، جميلاً وخادعاً، بينما الكواكب التسعة تبتعد عنه إلى الظلام من جديد.

في برج عطارد، جلس أشرف بعد عودته وحيداً أمام النافذة. كان ينظر إلى يديه اللتين ما زالتا ترتعشان. لأول مرة منذ بدء الرحلة، شعر بأن الكون ليس فقط فارغاً وبارداً.. بل معادياً بشكل شخصي.

همس لنفسه:

«إن كانت هذه أول شمس نلتقيها.. فماذا ينتظرنا بعد؟».

خلفه، على الشاشات، كانت الكواكب الثمانية الأخرى تواصل مسارها الجديد، والطابور يعيد تشكيل نفسه في الظلام، متجهاً نحو النجم التالي، والنسر الواقع يلمع من بعيد كوعد جديد.. أو كتهديد آخر.

الفصل التاسع

الظلام الطويل

بعد أن تركوا ألفا قنطوروس خلفهم، دخل الطابور الكوني في ليل لا ينتهي.

الشهور مرت ببطء قاسٍ. لا شمس، لا ضوء حقيقي، لا نهار ولا ليل إلا ما يصنعه الإنسان داخل القباب. الجو على أسطح الكواكب تجمد تماماً، والهواء تحول إلى جليد صلب. الحياة كلها انكمشت إلى المدن الحرارية، حيث المفاعلات النووية تئن ليل نهار لتبقي الحرارة والكهرباء والهواء الصناعي.

في البداية كان الأمل قوياً. الناس يقولون: «النسر الواقع قريب، سنصل قريباً». لكن القرب في المقياس الكوني يعني شهوراً طويلة من الظلام. تدريجياً بدأ الصمت يأكل الكلمات، والظلام يأكل الألوان.

على عطارد، في الأحياء السفلية، ظهرت حالات اكتئاب جماعي. أناس يتوقفون عن الأكل، يجلسون ساعات ينظرون إلى جدران معدنية باردة. أطفال يولدون ويرفضون فتح أعينهم، كأنهم يعرفون أن لا شيء يستحق الرؤية. ثم جاءت الأوبئة: فيروسات غريبة نشأت من الهواء المعاد تدويره مرات لا تحصى، ومن أجساد أضعفتها البرودة النفسية قبل الجسدية.

في أحد الأيام، اندلع تمرد صغير في القطاع الثالث. مئات العمال رفضوا الخروج إلى نوبات الصيانة، وراحوا يصرخون: «أرجعونا إلى الشمس القديمة! حتى الموت هناك أفضل». قمعت قوات الأمن التمرد بسرعة، لكن الصور انتشرت، والهمسات ازدادت.

وظهرت الطوائف. جماعة تسمي نفسها «أبناء الشمس الحمراء» راحوا يصلون كل يوم في اتجاه النقطة البعيدة التي تركوا فيها شمسهم القديمة، ويطالبون بالعودة حتى لو كان الثمن الفناء. وجماعة أخرى تقول إن الرحلة عقاب إلهي، وأن عليهم أن يتوقفوا ويستسلموا.

أشرف كان يتجول في المدن متنكراً أحياناً، يستمع. كان يرى الوجوه الشاحبة، والعيون التي فقدت بريقها. يعود إلى برج التحكم فيجد التقارير نفسها من الكواكب الأخرى: اكتئاب، تمردات صغيرة، طوائف، وأمل يتآكل.

في إحدى الليالي، ظهر شوقي على الشاشة الخاصة. كان الوقت متأخراً، والقاعة فارغة إلا من أشرف. شوقي لم يسخر هذه المرة. قال فقط:

«عندنا أيضاً. في بلوتو الناس يبدأون في نسيان لون الشمس. الأطفال يسألون: هل كانت صفراء حقاً؟ أم أننا نختلق الحكايات؟».

صمت أشرف لحظة، ثم رد:

«وأنت؟ هل نسيت؟».

شوقي ضحك ضحكة قصيرة جافة.

«أنا لا أنسى. أنا أتذكر كل شيء. أتذكر أن بلوتو كان دائماً في المؤخرة، حتى ونحن ندور حول الشمس القديمة. الآن أنا في المقدمة، وأنت في الذيل. القدر يسخر منا نحن الاثنين».

نظر أشرف إلى الوجه على الشاشة. لأول مرة رأى خلف السخرية شيئاً آخر: تعباً قديماً، ووحدة أقدم.

قال بهدوء:

«لماذا تكره عطارد إلى هذا الحد؟».

شوقي صمت طويلاً. ثم قال بصوت أخفض:

«لأن أبي مات هناك. كان ضمن بعثة علمية قديمة على عطارد، قبل أن يتجمد تماماً. حادثة في أحد المفاعلات. قالوا له إن الكوكب الصغير آمن. لم يعد. ومنذ ذلك اليوم وأنا أرى عطارد كقبر».

أشرف لم يجد ما يقوله فوراً. ثم همس:

«أنا ولدت بعد الحادثة بسنوات. لم أكن أعرف».

شوقي هز رأسه.

«الآن تعرف. ولهذا أنا أسخر. السخرية أسهل من الحزن».

أغلق الاتصال بعد ذلك مباشرة. أشرف بقي يحدق في الشاشة السوداء وقتاً طويلاً.

في الأسابيع التالية، ازداد الظلام ثقلاً. التقارير تتحدث عن ارتفاع حالات الانتحار، وعن أطفال يرسمون شمساً سوداء في دفاترهم. خالد كان يظهر على الشبكة المشتركة كل بضعة أيام، صوته هادئ يحاول أن يبث الأمل: «النسر الواقع يقترب. اصبروا».

لكن الصبر كان ينفد.

في إحدى الليالي، بينما كان أشرف يقف أمام النافذة ينظر إلى الطابور البعيد من الكواكب التي تسبقه، شعر بأن الظلام ليس خارج القباب فقط. كان يدخل إلى الصدور، ويستقر هناك، ويهمس لكل واحد منهم: «لن تصلوا. هذه الرحلة لا نهاية لها إلا الموت».

همس لنفسه وهو يلمس الزجاج البارد:

«سنصل. حتى لو كان الثمن أن نصبح شيئاً آخر غير ما كنا عليه».

في الفضاء الخارجي، كانت الكواكب التسعة تواصل اندفاعها البطيء عبر الفراغ اللامتناهي، نيران الاندماج خلفها هي الضوء الوحيد في كون قرر أن يكون مظلماً تماماً.

الفصل العاشر

النسر الواقع – الحرب الأولى

بعد شهور أخرى من الظلام، بدأ النسر الواقع يزداد حجماً ولمعاناً في المقدمة.

نجم أصفر ساطع، في عنفوان شبابه، له أربعة كواكب. العلماء قالوا إن طيفه نظيف هذه المرة، لا إشعاعات قاتلة كتلك التي واجهوها عند ألفا قنطوروس. الأمل عاد يزحف إلى القلوب المتعبة داخل القباب.

لكن الأمل لم يدم.

في «ليلة» من ليالي التوقيت الموحد، انطلقت صرخة شوقي من شاشة بلوتو:

«سفن فضائية كروية مجهولة! تهاجمنا بأعداد هائلة! إنهم يفوقوننا عدداً!».

بعدها مباشرة صرخ خالد:

«زحل يُهاجَم أيضاً!».

ثم تامر من نبتون، وأمير من أورانوس. الهجوم كان منسقاً، مركزاً على الكواكب الأربعة الأولى في الطابور.

خالد أصدر أوامره فوراً:

«كل السفن المقاتلة من الكواكب الداخلية.. انطلقوا للنجدة!».

من المشتري والمريخ والأرض انطلقت الأسراب. من الزهرة وعطارد انطلقت قوات وليد وأشرف. أكثر من خمسمائة سفينة مقاتلة اندفعت عبر الظلام نحو زحل أولاً.

المنظر حول زحل كان جحيماً.

كرات معدنية سوداء ضخمة تمطر أقراصاً ملتهبة بيضاء فوق المدن المقببة. كلما سقط قرص ناري محا كل شيء في طريقه. سفن زحل كانت تقاوم بأشعة الليزر، لكن العدد كان ضدها. عندما وصل أسطول النجدة، تحول الفضاء بين الحلقات والأقمار إلى فوضى من النيران والانفجارات.

أشرف كان يقود سفينته في المقدمة مع وليد. كانا يتحركان بين حلقات زحل، يستخدمان الصخور الجليدية كدروع، يطلقان الليزر على الكرات السوداء. شاهد سفينة مريخية تصطدم بكرة ملتهبة وتتحطم في انفجار صامت مرعب. شاهد سفينة زهرية تُباد بثلاثة أقراص نارية متتالية.

ومن خلال الشاشات، لمح للحظة المخلوقات التي تقود الهجوم: كائنات هلامية سوداء، أجسامها سائلة كأنها برك من الزيت الحي، تمد أطرافاً وتسحبها كما تشاء، وعيونها تلمع بضوء بارد.

المعركة امتدت ساعات. تدريجياً بدأت قوات النسر الواقع تتراجع. انسحبت من زحل نحو أورانوس، ثم من أورانوس نحو نبتون، وأخيراً تجمعت كلها حول بلوتو في محاولة يائسة أخيرة.

هناك كانت المعركة أشرس. شوقي كان يقاتل بضراوة، سفنه تنقص بسرعة. عندما وصل أسطول النجدة، تحول الفضاء فوق بلوتو إلى جحيم من الكرات والأقراص والحطام. لكن في النهاية، تراجعت القوات المعادية وولت هاربة نحو كواكبها الأربعة حول النسر الواقع.

بعد انتهاء القتال، هبط أعضاء المجلس على بلوتو بأمر خالد. في برج التحكم، أحضروا أحد الأسرى.

كان المخلوق الهلامي يقف في حقل حاجز شفاف، جسمه بركة سوداء لزجة تتحرك ببطء، وعيناه العامتان تحدقان فيهم. خالد اقترب وقال بصوت واضح، موجهاً أفكاره كما علمهم العلماء:

«لماذا هاجمتمونا؟».

الرد جاء كنبضات فكرية مباشرة في أذهانهم، باردة وحاسمة:

«رأيناكم قادمين عبر الفضاء. أردنا أسر أربعة من كواكبكم. لنترك شمسنا».

كرر خالد دهشاً:

«تتركوا شمسكم؟ لماذا؟ النسر الواقع يمنحكم الدفء والضوء».

الرد كان أسرع:

«أجل، حتى الآن. لكنه على وشك أن يصبح نوفا. سينفجر قريباً جداً. كواكبنا ستُدمر. لذلك أردنا كواكبكم لنرحل بها إلى شمس أخرى».

صمت مطبق في القاعة. أشرف شعر بقشعريرة تسري في ظهره. مازن همس:

«إنهم يفعلون بالضبط ما نفعله نحن..».

خالد نظر إلى الأسير طويلاً، ثم قال للآخرين:

«الآن نعرف. نجمهم يحتضر أيضاً. وهم يطاردوننا لنفس السبب الذي جعلنا نرحل».

في الخارج، كان النسر الواقع يلمع في الأفق، جميلاً وهادئاً، لا شيء فيه يدل على أنه يستعد للانفجار. لكن الجميع عرفوا الحقيقة الآن: هذه الشمس أيضاً ليست ملاذاً. وهي، قريباً جداً، ستتحول إلى جحيم.

وأربعة كواكب هلامية كانت ما زالت هناك، تراقبهم، وتنتظر اللحظة المناسبة.

الفصل الحادي عشر

الانفجار والمطاردة

لم ينتظروا طويلاً.

بعد أيام قليلة من المعركة، بدأت أجهزة الرصد في كل أبراج التحكم تسجل اضطراباً متزايداً في طيف النسر الواقع. الضوء كان يتغير، النبضات تزداد شدة، والنجم الأصفر الذي بدا شاباً بدأ ينتفخ أمام أعينهم.

خالد أصدر الأمر فوراً:

«انحرفوا. لا نبقى هنا لحظة إضافية».

الطابور الكوني انحنى جانباً، نيران الاندماج الجانبية تشتعل لدفع الكواكب بعيداً عن النجم المحتضر. كانوا ما زالوا على مسافة آمنة نسبياً عندما حدث الانفجار.

في لحظة واحدة، تحول النسر الواقع من نجم أصفر ساطع إلى محيط هائل من النيران البيضاء. تضاعف حجمه آلاف المرات في ثوانٍ، والضوء المنبعث كان أقوى من أي شيء رأوه منذ رحيلهم عن شمسهم القديمة. حتى داخل القباب، من خلف الطبقات الواقية، شعر الناس بالوهج كحرارة على جلودهم.

أشرف كان يقف أمام النافذة في برجه، يراقب عبر التلسكوبات المفلترة. رأى الوميض يبتلع كل شيء. بحث عن الكواكب الأربعة التي تدور حول النجم.. فلم يجدها في البداية. ثم، وسط الجحيم الناري، ظهرت أربع نقاط سوداء صغيرة، تندفع إلى الخارج في صف منظم، نيران اندماج نووي خلفها هي أيضاً.

صرح في جهاز الاتصال:

«الكواكب الأربعة! لقد نجت! إنها تبتعد عن الانفجار.. وتتجه نحونا!».

الصمت الذي أعقب كلماته كان أثقل من أي صراخ. على الشاشات، رأى وجوه الآخرين: خالد شاحب، مازن يفرك جبينه، شوقي يحدق بعيون ضيقة، وليد يعض شفته.

المازن قال بصوت أجش:

«كيف؟ كيف حركوا كواكبهم بهذه السرعة؟».

أشرف رد وهو ما زال يراقب النقاط الأربع:

«بنفس طريقتنا. ربما سرقوا الفكرة منا أثناء المعركة، أو كانوا يستعدون أصلاً. إنهم يطاردوننا الآن».

في الساعات التالية، تأكدت الحقيقة. الكواكب الهلامية الأربعة نجحت في الإفلات من الانفجار، وراحت تتبع مسار الطابور البشري بدقة مرعبة. المسافة بينهما كانت كبيرة، لكن المطاردة بدأت.

اجتمع المجلس عبر الشبكة. خالد كان يتكلم ببطء، كأنه يزن كل كلمة:

«النسر الواقع انتهى. الكواكب الأربعة خلفنا. أمامنا خيارات قليلة: قلب العقرب، إبط الجوزاء، الدجاجة، أو فم الحوت. كلها بعيدة. والشعوب متعبة».

تامر قال بصوت يائس:

«إلى متى نستمر؟ الشعوب على وشك الانهيار. الظلام والبرد والحرب الآن..».

قاطعه أمير:

«العودة مستحيلة. الشمس القديمة أبعد مما نستطيع، وهي تحتضر أصلاً».

شوقي ضحك ضحكته الجافة:

«إذن نمضي. ونحن نعرف أن أربعة كواكب معادية تجري خلفنا، تريد أن تسرق منا أي شمس نجدها».

أشرف نظر إلى الصورة البعيدة للكواكب الأربعة على الشاشة، ثم قال:

«نمضي. ليس لأننا أقوياء، بل لأن التوقف يعني الموت. وإذا وصلنا إلى شمس جديدة قبلهم، فسنكون نحن من يدافع هذه المرة».

خالد أومأ ببطء.

«القرار اتُّخذ إذن. نواصل نحو قلب العقرب أولاً. راقبوا المطاردين دون انقطاع. أي تغير في سرعتهم أو اتجاههم يُبلَّغ فوراً».

بعد انتهاء الاجتماع، بقي أشرف وحيداً في البرج. على الشاشة الجانبية كان يرى الطابور البشري يبتعد عن بقايا النسر الواقع المشتعلة، وخلفهم، على مسافة بعيدة لكنها محسوسة، النقاط الأربع السوداء تتحرك في إثرهم كظلال لا تُفلت.

همس لنفسه وهو يطفئ بعض الأضواء:

«الآن أصبحنا اثنين في هذه الرحلة الرهيبة. نحن وهم. والكون يتفرج».

في الفضاء الأسود، كانت بقايا النجم المنفجر ما زالت تتوهج كجرح مفتوح، بينما تسعة كواكب بشرية وأربعة كواكب هلامية تندفع في الاتجاه نفسه، نحو نجوم أبعد، ونحو مصير لم يكن أحد يعرف بعد من سيفوز به.

الفصل الثاني عشر

قلب العقرب وإبط الجوزاء

بعد أن تركوا بقايا النسر الواقع خلفهم، ومع الكواكب الأربعة الهلامية تلاحقهم عن بعد، اتجه الطابور نحو قلب العقرب.

كان النجم يظهر في البداية كنقطة حمراء باهتة، ثم ازداد حجماً ببطء. العلماء راحوا يرسلون التحذيرات واحداً تلو الآخر. طيفه غريب، نبضاته سريعة جداً، وكتلته مضغوطة بشكل غير طبيعي.

مازن كان أول من أعلن الحقيقة عبر الشبكة:

«إنه نجم نيوتروني. البروتونات وال الإلكترونات اندمجت داخله، فانهار على نفسه. قطره لا يتجاوز عشرة كيلومترات، لكن الستيمتر المكعب من مادته يزن مائة مليون طن. يدور حول نفسه بسرعة مرعبة، ويرسل نبضات كالمطرقة».

الصمت ملأ الشاشات. خالد قال فقط:

«اقتربوا بحذر. إن كانت الجاذبية أقوى من المتوقع ننحرف فوراً».

كلما اقتربوا، ازدادت قوة الجذب. الكواكب الغازية العملاقة، خاصة المشتري وزحل، بدأت تنحرف عن مسارها رغم نيران الاندماج الجانبية. الأقمار راحت ترتجف في مداراتها. على الشاشات ظهرت تحذيرات حمراء في كل برج تحكم.

أشرف سمع صوت خالد وهو يأمر:

«انحرفوا الآن. هذا النجم لا يصلح إلا قبر».

الطابور انحنى بعنف. نيران الاندماج اشتعلت بأقصى طاقتها لتفادي البئر الجاذبي الرهيب. للحظة بدا أن المشتري سيفلت من السيطرة، لكن مازن نجح في آخر لحظة في دفع كوكبه بعيداً. خلفهم، رأى أشرف الكواكب الهلامية الأربعة تنحرف هي أيضاً، كأنها قررت أن تتبعهم أينما ذهبوا.

بعد قلب العقرب جاء إبط الجوزاء.

نجم برتقالي هائل، يضيء ويخفت بانتظام كأنه يتنفس. من بعيد بدا واعداً. لكن كلما اقتربوا، ظهرت الحقيقة: النجم محاط بأحزمة لا تحصى من الشهب والكويكبات والمعادن المتطايرة. عواصف صخرية هائلة تدور حوله كأسوار متحركة.

د. سارة ظهرت على الشبكة، صوتها متوتر لأول مرة:

«المجازفة بالدخول تعني اصطدامات متتالية. الكواكب الصخرية قد تصمد جزئياً، لكن الغازية والأقمار ستُمزق».

خالد لم يتردد:

«نمر بعيداً. لا نقترب».

لكن المسافة الآمنة كانت ضيقة. بعض الشهب خرجت عن الحزام واندفعت نحو الطابور. على زحل، اخترقت ثلاثة أجسام كبيرة إحدى الحلقات وأصابت قمراً صغيراً، فتفجر في صمت مروع. على المريخ، سقط شهاب على طرف مدينة مقببة، فحطم جزءاً من القبة وقتل العشرات قبل أن يُغلق الثقب. على نبتون، فقدوا أحد الأقمار الصغيرة تماماً؛ ابتلعه الحزام ولم يعد.

الخسائر لم تكن مادية فقط. داخل القباب، كان اليأس ينمو كالعفن. الناس راحوا يقولون: «كل شمس نصل إليها ترفضنا. ربما الكون لا يريدنا». الطوائف ازدادت جرأة، والتمردات الصغيرة أصبحت أكبر. في إحدى مدن الأرض، حاولت مجموعة تعطيل مفاعل نووي احتجاجاً، وكاد الأمر يتحول إلى كارثة.

أشرف كان يتلقى التقارير يومياً. كان يرى في عيون علمائه وفي وجوه الناس عبر الشاشات أن الأمل يتآكل أسرع من الجليد على أسطح الكواكب. في ليلة باردة، اتصل به وليد. صوت صديقه كان أجش:

«الناس هنا بدأوا يتوقفون عن السؤال متى نصل. بدأوا يسألون هل سنصل أصلاً».

رد أشرف وهو ينظر إلى النقاط الأربع البعيدة التي ما زالت تتبعهم:

«سنصل. ليس لأن الطريق سهل، بل لأن العودة لم تعد موجودة».

بعد أن تجاوزوا إبط الجوزاء، بقي أمامهم نجمان رئيسيان: الدجاجة وفم الحوت. المسافات أطول، والشعوب أضعف، والمطاردون الهلاميون ما زالوا خلفهم كظل لا يُمحى.

في برج التحكم، كتب أشرف في سجل الرحلة الشخصي كلمات لم يرسلها لأحد:

«كل شمس نتركها تأخذ معها قطعة من أملنا. كم قطعة تبقى قبل أن نصبح فارغين تماماً؟».

خارج النوافذ، كان الفضاء الأسود يمتد بلا نهاية، والكواكب التسعة تواصل اندفاعها البطيء، مثقلة بالخسائر، مطاردة بالظلال، متجهة نحو ما قد يكون الأمل الأخير.. أو النهاية.

الفصل الثالث عشر

الدجاجة X-1

بعد إبط الجوزاء، اتجه الطابور نحو نجوم الدجاجة.

في البداية بدا النجم المرشح واعداً: نجم أزرق ساخن، طيفه نظيف نسبياً، وله رفيق غير مرئي كانت الأجهزة ترصده منذ أيام. العلماء قالوا إن الرفيق قد يكون قزماً أبيض أو نجماً نيوترونياً صغيراً. الأمل، رغم ضعفه، عاد يتنفس مرة أخرى داخل القباب.

لكن كلما اقتربوا، ازدادت القراءات غرابة.

د. سارة كانت أول من أطلقت التحذير الحاد عبر الشبكة:

«الرفيق ليس نجماً. الجاذبية أعلى بكثير من أي نجم نيوتروني. الضوء ينحني حوله بشكل غير طبيعي. هذا.. ثقب أسود».

الصمت الذي أعقب كلماتها كان مطلقاً. حتى شوقي لم يسخر.

خالد ظهر فوراً على الشاشات، وجهه شاحب:

«أكدوا».

سارة أعادت الحسابات أمام الجميع. الرسوم المجسمة أظهرت نجم الدجاجة الأزرق يدور حول نقطة سوداء لا يُرى منها شيء، لكن المادة من النجم كانت تُسحب نحوها في دوامة مضيئة قبل أن تختفي إلى الأبد. الثقب الأسود كان يبتلع شيئاً فشيئاً من رفيقه.

مازن قال بصوت منخفض:

«إن اقتربنا أكثر، قد لا نستطيع الإفلات. جاذبيته تزداد كلما اقتربنا، ولن تنفع نيران الاندماج».

الأمر صدر فوراً:

«انحرفوا بأكبر زاوية ممكنة. ابتعدوا الآن».

الطابور انحنى بعنف مرة أخرى. الكواكب الغازية عانت أكثر من غيرها؛ المشتري وزحل ونبتون ارتجفوا تحت الضغط الجاذبي الهائل. بعض الأقمار الصغيرة انحرفت عن مداراتها وكادت تُفقد. داخل القباب، شعر الناس بثقل غريب في أجسادهم، كأن شيئاً يحاول سحبهم من داخل جلودهم.

أشرف كان يراقب من برجه وهو يضغط على أزرار التصحيح. على الشاشة رأى النقطة السوداء البعيدة، والدوامة المضيئة حولها، والظلام المطلق في مركزها. فكر للحظة: هذا هو الموت الحقيقي. ليس انفجاراً ولا إشعاعاً، بل اختفاء كامل من الوجود.

بعد أن خرجوا من منطقة الخطر، وأعادت الكواكب ترتيب الطابور، ظهر وليد على الشاشة الخاصة. كان صوته هادئاً أكثر من المعتاد:

«هل رأيت ذلك الشيء؟ الثقب الأسود. الكون لا يكتفي بأن يكون فارغاً أو بارداً أو معادياً. هو أيضاً يبتلع».

رد أشرف:

«نعم. وكأن كل شمس نصل إليها تخبئ لنا نوعاً جديداً من الموت».

في الخلف، كانت الكواكب الهلامية الأربعة ما زالت تتبعهم. انحرفت هي أيضاً بعيداً عن الثقب الأسود، كأنها ترفض أن تموت قبل أن تنتزع منهم شمساً.

في تلك الليلة، بعد أن هدأت أجهزة الإنذار، جلس أعضاء المجلس في اتصال مفتوح طويل. لم يناقشوا المسارات فقط. راحوا يتكلمون عن أشياء أعمق.

عادل قال:

«ربما الإنسان لم يُخلق ليرحل بين النجوم بهذا الشكل. ربما كان علينا أن نموت مع شمسنا بهدوء».

شوقي رد هذه المرة دون سخرية:

«الموت الهادئ رفاهية. نحن اخترنا أن نقاوم، والكون يرد علينا بكل أسلحته».

خالد، الذي كان يستمع معظم الوقت، تحدث أخيراً بصوت منخفض:

«الكون ليس ضدنا ولا معنا. هو ببساطة لا يكترث. نحن من نعطي المعنى لرحلتنا. إن وصلنا، نكون قد انتصرنا على اللامبالاة نفسها. وإن لم نصل.. فقد حاولنا على الأقل».

أشرف نظر إلى النقاط البعيدة للكواكب التسعة على الشاشة، ثم إلى الظلام الذي يفصلهم عن فم الحوت، النجم الأخير في قائمتهم.

قال:

«فم الحوت هو الأمل الأخير. إن فشلنا هناك أيضاً.. فلن يكون أمامنا إلا أن نختار كيف نموت».

لم يرد أحد. الصمت كان كافياً.

خارج النوافذ، كان الثقب الأسود يبتعد خلفهم، يبتلع ضوء نجمه ببطء أبدي، بينما الطابور البشري والمطاردون الهلاميون يواصلون الاندفاع نحو النقطة التالية في الخريطة، محملين بخسائر جديدة، ويأس أعمق، وسؤال واحد لم يعد أحد يجرؤ على طرحه بصوت عالٍ: هل هناك شمس في هذا الكون تقبل أن تحتضنهم؟

الفصل الرابع عشر

الأمل الأخير – فم الحوت

بعد أن تركوا الثقب الأسود خلفهم، لم يبقَ أمام الطابور إلا نجم واحد في قائمتهم الطويلة: فم الحوت.

نجم أبيض مزرق، في منتصف عمره، يبعد مسافة ما زالت تُحسب بالشهور. كلما اقتربوا، ازداد ضوءه وضوحاً على الشاشات، وازدادت القلوب خفقاً داخل القباب. الشعوب التي أنهكها الظلام والبرد والحروب والخسائر بدأت تتحدث عنه كأنه المخلص. الأطفال رسموه في دفاترهم قرصاً أزرق لامعاً، والكبار راحوا يعدّون الأيام من جديد.

لكن الأمل كان مشوباً بالخوف الدائم من الظلال الأربعة التي ما زالت تتبعهم.

عندما أصبحت المسافة ثمانية ملايين كيلومتر، أصدر خالد الأمر المعتاد:

«بعثة استطلاعية. أشرف، خذ مائتي سفينة هذه المرة. نفحص كل شيء».

انطلقت السفن من عطارد، وعبرت الطابور كله حتى تجاوزت بلوتو. شوقي لوح لهم من بعيد، وقال عبر الاتصال بصوت أقل سخرية من المعتاد:

«إن كان هذا النجم قاتلاً أيضاً، فأخبرونا بسرعة. لم يعد لدينا نجوم أخرى».

كلما اقتربوا، كانت الأجهزة تعمل بلا توقف. طيف النجم نظيف. لا إشعاعات تفتيتية كتلك التي في ألفا قنطوروس. لا نبضات جنونية كقلب العقرب. لا أحزمة شهب كإبط الجوزاء. لا رفيق خفي يبتلع الضوء.

ثم جاءت المفاجأة الأكبر: النجم بلا كواكب.

لا عالم صخري، لا عملاق غازي، لا شيء يدور حوله. فقط فضاء نظيف يمتد حوله، جاهز لاستقبال وافدين جدد.

أشرف شعر بشيء غريب في صدره وهو ينظر إلى القراءات. أرسل التقرير فوراً إلى خالد، صوته يرتجف قليلاً رغم محاولته السيطرة عليه:

«فم الحوت مناسب تماماً. لا إشعاعات ضارة، لا كواكب سابقة، جاذبيته مستقرة، حرارته مثالية للكواكب الصخرية والغازية على حد سواء. يمكننا أن نضع مداراتنا هنا».

انتشر الخبر كالنار في الهشيم عبر الشبكة المشتركة. في المدن المقببة، خرج الناس إلى الشرفات والنوافذ ينظرون إلى النقطة الزرقاء البعيدة التي بدأت تكبر. بعضهم بكى، بعضهم راح يعانق من حوله، بعضهم سقط على ركبتيه من الإرهاق والأمل معاً.

لكن الفرحة لم تكن كاملة.

على الشاشات الجانبية، كانت النقاط الأربع للهلاميين ما زالت هناك، خلفهم بمسافة محسوبة. لم تتوقف، لم تنحرف، لم تتباطأ. كأنها تعرف أن هذا هو النجم الأخير، وأن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد.

في اجتماع المجلس العاجل، قال مازن:

«إن وضعنا مداراتنا هنا، سيضعون مداراتهم أيضاً. وسنعود إلى الحرب من جديد، لكن هذه المرة ونحن نحاول أن نبني حياة».

شوقي رد:

«إذن نستعد للحرب ونحن نبني. لا خيار آخر».

وليد نظر إلى أشرف عبر الشاشة وقال:

«بعد كل هذا الطريق.. هل سنتركهم يسرقون منا الشمس الأخيرة؟».

أشرف لم يجب فوراً. كان ينظر إلى ضوء فم الحوت الذي يملأ جزءاً من نافذته الآن، أبيض مزرق، نظيف، واعد. ثم قال بهدوء:

«لن نتركهم. لكن أولاً نصل. نضع أقدامنا في المدارات. بعد ذلك نرى كيف ندافع عن البيت الجديد».

خالد أنهى الاجتماع بكلمات قصيرة:

«نقترب. نستعد لوضع المدارات. ونراقب المطاردين كل لحظة. هذه الشمس.. لن نضيعها».

بعد انتهاء الاتصال، بقي أشرف واقفاً أمام النافذة. ضوء فم الحوت كان ينعكس على وجهه المتعب. خلفه، على الشاشة، كان يرى الطابور البشري كله يتقدم ببطء، وخلفهم الظلال الأربعة.

همس، كأنه يخاطب النجم نفسه:

«اقتربنا. لا ترفضنا هذه المرة. فنحن لم يعد لدينا مكان آخر نذهب إليه».

في الفضاء، كان الضوء الأزرق يزداد، والطابور يقترب، والمطاردون يتبعون، والكون ينتظر ليرى من سيفوز بالشمس الأخيرة في هذه الرحلة الرهيبة.

الفصل الخامس عشر

الدخول إلى المدار

الاقتراب النهائي من فم الحوت كان أبطأ مما توقع أي منهم.

الضوء الأبيض المزرق ملأ النوافذ تدريجياً، حتى أصبح الليل داخل القباب أقل ظلمة. الحرارة بدأت ترتفع على أسطح الكواكب، والجليد الذي تراكم على مدى الرحلة الطويلة راح ينكمش ببطء. للمرة الأولى منذ سنوات، شعر الناس بدفء حقيقي يأتي من خارج جدرانهم المعدنية.

لكن وضع تسعة كواكب في مدارات مستقرة حول نجم جديد لم يكن أمراً بسيطاً.

بدأت العملية من الخارج: بلوتو أولاً. شوقي قاد كوكبه ببطء وحذر، يطفئ نيران الاندماج تدريجياً، ويستخدم الدفع الجانبي لضبط السرعة. القمر شارون دار معه في مدار ضيق. نجحت العملية بعد ساعات من التوتر. بلوتو أصبح أول كوكب يدور حول فم الحوت.

ثم نبتون، ثم أورانوس. كل مرة كانت الحسابات أدق، والتجربة السابقة تساعد. زحل جاء بعده. الحلقات ارتجفت وهي تدخل المدار، والأقمار الكثيرة تشبثت بمواقعها الجديدة. خالد كان يراقب من برجه، وجهه مغطى بالعرق رغم البرودة المتبقية.

عندما جاء دور المشتري، حدث الخطأ.

السرعة كانت أعلى قليلاً مما يجب. مازن حاول التصحيح، لكن الكتلة الهائلة للكوكب جعلت الاستجابة بطيئة. للحظة بدا أن المشتري سيفلت من جاذبية فم الحوت ويندفع إلى الفضاء من جديد، أو أسوأ: يقترب أكثر من اللازم ويُسحق. الإنذارات صرخت في كل الأبراج. خالد صاح عبر الشبكة:

«صحح الآن! استخدم كل الدفع الخلفي!».

نيران الاندماج اندفعت بأقصى طاقتها. المشتري ارتجف كوحش مصاب، ثم بدأ يتباطأ ببطء مؤلم. بعد دقائق بدت كساعات، استقر في مداره. أقماره الثمانية عشر لحقت به واحداً تلو الآخر، بعضها في اللحظة الأخيرة.

مازن ظهر على الشاشة بعدها، صوته أجش:

«نزلنا. لكن لا أريد أن أعيش هذه اللحظة مرة أخرى».

المريخ دخل بسهولة نسبية، ثم الأرض. عادل كان يبتسم وهو يرى كوكبه الأزرق يستقر أخيراً حول شمس جديدة. القمر الجميل دار في مداره المعتاد كأن شيئاً لم يتغير.

الزهرة تلتها. وليد أرسل إشارة قصيرة إلى أشرف: «دورك يا آخرنا».

بقي عطارد.

أشرف وقف أمام الأزرار، يديه ثابتتين هذه المرة. ضغط، ووجّه، وصحح. الكوكب الصغير استجاب بسرعة أكبر من العملاقة. في أقل من ساعة كان عطارد في مداره الداخلي، الأقرب إلى فم الحوت، تماماً كما كان قربه من الشمس القديمة.

عندما استقرت الكواكب التسعة كلها، ساد صمت قصير في الشبكة، ثم انفجر الاتصال بالهتافات والضحك والبكاء معاً.

على أسطح الكواكب، بدأ الجليد يذوب فعلاً. المياه عادت تجري في القنوات القديمة، والهواء الدافئ تسرب عبر الفتحات. الناس خرجوا إلى الشرفات بلا بدلات واقية لأول مرة منذ سنوات. بعضهم خلع أحذيته ومشى على الأرض المعدنية التي بدأت تكتسب دفئاً. الأطفال أشاروا إلى القرص الأبيض المزرق في السماء وصرخوا: «شمس! شمس!».

في المدن المقببة، انطلقت الاحتفالات. أضواء ملونة، موسيقى قديمة أُخرجت من الأرشيفات، وعناق بين غرباء. على الشاشات العامة ظهر خالد، صوته مبحوح من التعب والفرحة:

«لقد وصلنا. هذه شمسنا الجديدة. فم الحوت. هنا نبدأ من جديد».

لكن في غرفة التحكم الخاصة، كان أشرف ينظر إلى الشاشة الجانبية. النقاط الأربع ما زالت هناك، تقترب. لم تحتفل، ولم تتوقف.

همس وليد له عبر الاتصال الخاص:

«الفرحة ناقصة يا صديقي. إنهم قادمون».

رد أشرف وهو يطفئ بعض الأضواء الاحتفالية في البرج:

«أعرف. دع الناس يفرحون الليلة. غداً نعود إلى الحرب».

خارج النوافذ، كان فم الحوت يشرق على الكواكب التسعة، يذيب آخر طبقات الجليد، بينما الظلال الأربعة تقترب من حافة النظام الجديد، جاهزة لتحول الاحتفال إلى معركة من أجل البقاء.

الفصل السادس عشر

عودة المطاردين

الفرحة لم تدم أكثر من دورة واحدة حول فم الحوت.

في «الصباح» التالي حسب التوقيت الموحد، انطلقت صفارات الإنذار في كل أبراج التحكم دفعة واحدة. الشاشات امتلأت بالنقاط الأربع التي كانت بعيدة، والآن أصبحت قريبة بما يكفي لرؤية تفاصيلها: أربعة كواكب داكنة، تندفع نحو النظام الجديد، نيران الاندماج خلفها ما زالت مشتعلة.

شوقي كان أول من صاح:

«إنهم هنا! يدخلون النظام!».

خالد أصدر الأوامر فوراً:

«كل السفن المقاتلة في حالة تأهب قصوى. لا تطلقوا النار إلا إذا هاجموا أولاً. نحتاج إلى معرفة نيتهم».

النية اتضحت بسرعة.

الكواكب الهلامية لم تتجه نحو أي من الكواكب البشرية. اتجهت مباشرة نحو فم الحوت نفسه، وراحت تبطئ سرعتها بدقة مرعبة، تماماً كما فعل البشر قبل يوم واحد. واحداً تلو الآخر، دخلت في مدارات فارغة بين مدارات الكواكب التسعة وحولها. لم تصطدم بأحد، لم تطلق نيراناً، فقط.. استقرت.

في قاعة المجلس الطارئ التي عُقدت عبر الشبكة، ساد صمت ثقيل قبل أن ينفجر النقاش.

مازن قال بصوت مرتفع:

«إنهم يشاركوننا الشمس! بعد كل ما فعلناه، بعد كل الخسائر، يأتون ليجلسوا معنا حول المائدة نفسها؟».

عادل رد بمرارة:

«وماذا نفعل؟ نهاجمهم الآن ونحن لم نكد نستقر؟ المدن ما زالت تصلح أضرار الرحلة، والناس لم ينالوا قسطهم من الراحة».

شوقي ضحك ضحكته الجافة:

«الراحة؟ هؤلاء لا يعرفون معنى الراحة. هم جاؤوا للبقاء. وإذا بقوا، فسيتنافسون معنا على كل شيء: الضوء، الحرارة، الموارد، وربما يقررون لاحقاً أن تسعة كواكب كثيرة عليهم».

وليد نظر إلى أشرف عبر الشاشة.

«هل نتفاوض؟ هل نحاول التفاهم كما فعلنا مع الأسير القديم؟».

أشرف كان يحدق في الصور المقربة للكواكب الأربعة. على سطوحها كانت تظهر مدن غريبة، لزجة، تتحرك كأنها حية. قال ببطء:

«التفاهم مع من يريد أن يسرق شمسك بعد أن سرقت أنت شمسه القديمة؟ هم يروننا كما نريهم: منافسين على البقاء. والكون لا يتسع لشمس واحدة وثلاث عشرة كوكباً متصارعين إلى الأبد».

خالد رفع يده ليوقف الجدل. وجهه كان يبدو أكبر سناً من أي وقت مضى.

«الواقع الآن كالتالي: هم هنا. في مدارات مستقرة. منعهم بالقوة يعني حرباً شاملة ونحن لم نتعافَ بعد. تركهم يعني قبول شركاء مفروضين قد يتحولون إلى أعداء في أي لحظة».

نجوى، قائدة الأسطول، تدخلت بصوتها العسكري الحاد:

«الأسطول جاهز. لكن أي حرب الآن ستكون داخل النظام نفسه. الخسائر ستكون أكبر بكثير من معركة النسر الواقع. المدن المقببة مكشوفة، والناس متفرقون في الاحتفالات».

د. سارة أضافت بهدوء علمي:

«من الناحية الفيزيائية، المدارات مستقرة حالياً. لكن وجود أربعة كواكب إضافية يغير التوازن على المدى الطويل. الجاذبية المتبادلة ستسبب اضطرابات بعد سنوات أو عقود».

صمت الجميع. الحقيقة كانت واضحة وقاسية: المطاردون نجحوا. وصلوا. واستقروا حول الشمس نفسها التي قطع البشر كل هذه المسافة من أجلها.

في الخارج، كان ضوء فم الحوت يسقط على الكواكب الثلاثة عشر الآن: التسعة البشرية والأربعة الهلامية. الدفء نفسه، الضوء نفسه، لكن السلام كان قد تبخر.

أشرف أنهى الاتصال الخاص مع وليد بكلمات قصيرة:

«الاحتفال انتهى. الآن تبدأ المرحلة الأخيرة من الرحلة الرهيبة. مرحلة البقاء».

على الشاشات، كانت الكواكب الأربعة تبدو هادئة في مداراتها الجديدة، كأنها تنتظر. والبشر، داخل قبابهم التي لم تكتمل فرحتها بعد، راحوا يعيدون تشغيل أنظمة الدفاع، وينظرون إلى السماء الزرقاء-البيضاء التي لم تعد ملكهم وحدهم.

الفصل السابع عشر

القرار المستحيل

الليلة التي تلت استقرار الهلاميين كانت الأطول منذ بدء الرحلة.

المجلس انعقد في برج زحل هذه المرة، حضورياً قدر الإمكان. الأعضاء الذين استطاعوا الحضور وصلوا بسفن سريعة، والباقون ظهروا على الشاشات. القاعة كانت غارقة في ضوء فم الحوت الأبيض المزرق الذي يدخل من النوافذ الواسعة، لكن الوجوه كانت داكنة.

خالد فتح الجلسة بصوت خافت:

«لا نملك رفاهية الوقت. هم هنا. والدفاع التقليدي يعني حرباً طويلة داخل النظام، قد تدمرنا قبل أن تدمرهم. هل من أفكار؟».

الصمت امتد. ثم رفع أشرف يده.

كان يقف، لا يجلس. صوته جاء هادئاً بشكل مخيف:

«هناك طريقة واحدة لإنهاء الأمر بسرعة. عطارد».

نظر الجميع إليه. شوقي رفع حاجبيه. وليد انحنى إلى الأمام.

تابع أشرف:

«كوكبنا هو الأصغر، والأقرب إلى الشمس، والأسرع حركة. نُخلي كل سكانه. ننقلهم إلى الكواكب الأخرى بسفن. ثم نوجه عطارد نفسه.. ليصطدم بالكواكب الأربعة واحداً تلو الآخر. كتلة عطارد وسرعته كافيتان لتدميرهم أو إخراجهم من المدارات تماماً. بعدها.. لا يبقى شيء من عطارد».

الانفجار جاء فوراً.

مازن صاح:

«جنون! تضحّي بكوكب كامل؟».

عادل قال:

«سكان عطارد ملايين. أين نضعهم كلهم؟».

تامر همس:

«هذا انتحار جماعي باسم النصر».

حتى خالد بدا صادماً. لكن أشرف لم يتراجع. نظر إلى كل واحد منهم وقال:

«عطارد كان دائماً الأصغر، الأضعف، الأخير في الطابور. الآن يمكنه أن يكون الأول في التضحية. إن لم نفعل هذا، سنحارب سنوات، ونخسر أكثر من كوكب واحد. ربما نخسر كل شيء».

شوقي، الذي كان صامتاً حتى الآن، تكلم فجأة. صوته لم يكن ساخراً:

«ومن يقود عطارد في هذه الرحلة الأخيرة؟».

أشرف رد دون تردد:

«أنا. أبقى مع فريق صغير في برج التحكم. بعد الاصطدامات.. إن نجونا، نغادر بسفينة. وإن لم ننجُ.. فيكون هذا ثمن الشمس».

وليد وقف. وجهه شاحب لكنه حازم.

«أنا أذهب معك. الزهرة تستطيع أن تستقبل جزءاً من سكان عطارد. وأنا لا أتركك تموت وحدك».

شوقي أضاف بعد صمت قصير، وهو ينظر إلى أشرف نظرة مختلفة تماماً عن كل النظرات السابقة:

«بلوتو أيضاً. أنا أعرف كيف أقود في المقدمة. سأكون معكما في البرج. ثلاثة أفضل من واحد».

الرفض الأولي تحول تدريجياً إلى نقاش حاد طويل. د. سارة قدمت حسابات: الاصطدام ممكن تقنياً، والاحتمالات تشير إلى تدمير الكواكب الأربعة أو إخراجها على الأقل من النظام. نجوى أكدت أن الأسطول يستطيع تنظيم عملية إخلاء سريعة.

خالد استمع إلى الجميع، ثم قال أخيراً:

«إن وافق سكان عطارد.. نفعل. لا نفرض على أحد أن يموت من أجلنا».

في الساعات التالية، أُعلن القرار عبر الشبكة على عطارد أولاً. أشرف تحدث بنفسه إلى شعبه. شرح الخطة بصراحة كاملة، دون تجميل. قال لهم إنهم سيتركون بيتهم إلى الأبد، وإن بعضهم قد لا يرى الشمس الجديدة من قبة أخرى.

الصمت الذي أعقب كلماته كان طويلاً. ثم بدأت الردود تصل: موافقة. موافقة. موافقة. ليس لأنهم لا يخافون، بل لأنهم فهموا منذ البداية أن كوكبهم الصغير قد يُطلب منه يوماً أن يكون الثمن.

بدأت عملية الإخلاء فوراً.

آلاف السفن، من كل الكواكب، هبطت على عطارد. موكب هائل من المعدن والضوء. الناس يحملون ما يستطيعون من ذكريات: صور، أجهزة صغيرة، أطفال، كتب قديمة. صفوف طويلة تتجه نحو السفن في صمت مهيب. بعضهم بكى وهو ينظر آخر مرة إلى شوارع المدن المقببة. بعضهم سار بوجوه جامدة كأنها حجر.

أشرف ووليد وشوقي وقفوا في برج التحكم، يراقبون الموكب وهو يرتفع. المدينة تحتهم كانت تفرغ تدريجياً. الأضواء تنطفئ قطاعاً بعد قطاع.

عندما غادرت آخر سفينة، بقي الثلاثة وحدهم تقريباً مع فريق صغير من المتطوعين.

وليد وضع يده على كتف أشرف وقال بهدوء:

«الآن نصبح نحن الثلاثة.. عطارد كله».

شوقي أضاف، وهذه المرة بلا أي سخرية:

«فلننه هذه الرحلة الرهيبة كما يجب».

خارج النافذة، كان فم الحوت يشرق على كوكب يفرغ من أهله، وعلى أربعة كواكب هلامية لا تعرف بعد أن الموت يقترب منها في شكل عالم صغير قرر أن يفنى من أجل الباقين.

الفصل الثامن عشر

التضحية

عندما أصبح عطارد فارغاً إلا من برج التحكم والفريق الصغير، أصدر أشرف الأمر.

نيران الاندماج اشتعلت من جديد في الخنادق الأربعة. الكوكب الصغير الذي استقر قبل أيام فقط في مداره الدافئ حول فم الحوت، انفصل عنه ببطء، ثم اندفع إلى الأمام.

في أبراج الكواكب الأخرى، كان الجميع يراقبون في صمت مطبق. لا أحد يتكلم. الشاشات كانت تعرض المسار المحسوب: عطارد يتجه أولاً نحو أقرب الكواكب الهلامية الأربعة.

شوقي كان يقف إلى يمين أشرف، يديه على لوحة التحكم الثانوية. وليد إلى اليسار. الثلاثة فقط في غرفة القيادة الرئيسية، وباقي المتطوعين في غرف المحركات والطوارئ.

قال شوقي بصوت منخفض:

«الأول يقترب. سرعته أقل من سرعتنا. الاصطدام بعد أربع دقائق».

أشرف أومأ. صحح المسار قليلاً. عطارد اندفع كرمح معدني عبر الفضاء. الهلاميون أدركوا الخطر أخيراً. بدأت نيرانهم تشتعل محاولين الانحراف، لكن الوقت كان متأخراً.

الاصطدام الأول كان مرعباً في صمته.

عطارد ارتطم بالكوكب الهلامي جانبياً. الضوء الأبيض المبهر ملأ الشاشات. الحطام تناثر في كل اتجاه. الكوكب المعادي تمزق إلى أجزاء كبيرة صغيرة، بعضها اندفع نحو فم الحوت، وبعضها تاه في الظلام. برج التحكم على عطارد اهتز بعنف، الإنذارات صرخت، لكن الهيكل صمد.

وليد صاح:

«نجح! الأول انتهى!».

لكن الثمن بدأ يظهر. شقوق في الجدران، أضواء تنطفئ، وأحد الخنادق النووية توقف عن العمل.

الثاني كان أبعد. احتاجوا إلى مناورة حادة. شوقي قاد الدفع الجانبي بخبرة من كان دائماً في المقدمة. عطارد دار في قوس واسع، ثم اندفع. الهلاميون أطلقوا أقراصاً

نارية هذه المرة، بعضها أصاب سطح عطارد وحفر فوهات جديدة. لكن الاصطدام الثاني حدث. تدمير كامل تقريباً. الكوكب الثاني تحول إلى سحابة من الحطام اللزج المتناثر.

الآن بقي اثنان، وعطارد كان يموت.

الاهتزازات أصبحت مستمرة. الهواء يتسرب من بعض القطاعات. الحرارة ترتفع داخل البرج لأن أنظمة التبريد تضررت. أشرف نظر إلى رفيقيه وقال:

«الثالث والرابع قريبان من بعضهما. نأخذهما معاً. بعدها نغادر فوراً إلى السفينة».

وليد ابتسم ابتسامة متعبة:

«كأننا نملك خياراً آخر».

شوقي لم يقل شيئاً. فقط ثبت المسار النهائي.

الاندفاع الأخير كان يائساً. عطارد، المثقل بالشقوق والنيران الداخلية، اندفع نحو الكوكبين المتبقيين كأنه يعلم أن هذه آخر رحلة له. الهلاميون حاولا الهروب، أطلقا كل ما تبقى لديهما من أسلحة. انفجارات على السطح، برج ثانوي ينهار، لكن البرج الرئيسي صمد.

ثم الاصطدام المزدوج.

الضوء كان أقوى من أي شيء رأوه في حياتهم. الشاشات ابيضت تماماً. البرج دار حول نفسه. الجاذبية اختلت. صوت المعدن وهو يتمزق ملأ الآذان. أشرف شعر بجسده يُقذف جانباً، ثم بيدين تمسكان به: وليد من جهة، وشوقي من جهة أخرى.

عندما عادت الرؤية جزئياً، لم يعد هناك كوكب رابع أو ثالث. فقط حطام هائل يدور ويحترق. وعطارد نفسه كان يتفتت. أجزاء كبيرة منه انفصلت، والخنادق النووية تنفجر واحداً تلو الآخر.

أشرف صاح:

«إلى السفينة! الآن!».

الثلاثة ركضوا عبر الممرات المهتزة، يسحبون معهم من تبقى من الفريق. السفينة الاحتياطية كانت في الحظيرة السفلية. صعدوا، أغلقوا الأبواب، وانطلقوا في اللحظة التي انهار فيها برج التحكم خلفهم تماماً.

من نافذة السفينة، رأوا عطارد وهو يموت.

الكوكب الصغير الذي حملهم طوال الرحلة الرهيبة، الذي كان الأخير في الطابور والأول في التضحية، تحول إلى كتلة مشتعلة من الصخور والمعادن والغازات، تتناثر بقاياها في المدارات حول فم الحوت. الكواكب الهلامية الأربعة لم يعد لها وجود.

في السفينة الصغيرة، ساد صمت طويل. أشرف كان يجلس على الأرض، ظهره إلى الجدار. وليد بجانبه. شوقي أمامهما.

شوقي مد يده فجأة، ووضعها على كتف أشرف. قال بصوت أجش، بلا أي أثر للسخرية القديمة:

«كوكبكم الصغير.. لم يكن صغيراً أبداً».

وليد أضاف، وعيناه ممتلئتان:

«الآن نستطيع أن نبدأ».

أشرف نظر إليهما، ثم إلى الضوء الأبيض المزرق الذي يملأ النافذة. همس:

«وداعاً يا عطارد. لقد أتممت الرحلة».

خلفهم، كانت بقايا عالمهم القديم تتناثر في الصمت الكوني، بينما السفينة الصغيرة تتجه نحو أقرب الكواكب الباقية، حاملة ثلاثة رجال كانوا قد تركوا كل شيء خلفهم من أجل أن يبقى الباقون.

الفصل التاسع عشر

شمس جديدة

بعد أن استقرت السفينة الصغيرة على سطح الزهرة، وبعد أن نُقل أشرف ووليد وشوقي إلى برج التحكم المركزي هناك، بدأت الإمبراطورية تعدّ جراحها.

ثمانية كواكب فقط بقيت تدور حول فم الحوت. عطارد لم يعد موجوداً إلا كذكريات وبقايا متناثرة في المدارات الداخلية، تُرصد أحياناً كشُهب صغيرة تحترق في الغلاف الجوي للكواكب المجاورة. لكن الشمس الجديدة كانت سخيّة. الضوء الأبيض المزرق كان ثابتاً ودافئاً، والحرارة عادت إلى المستويات التي تسمح بالحياة خارج القباب تدريجياً.

الشهور التالية كانت شهوراً لإعادة البناء.

على الأرض، فُتحت أجزاء من القباب لأول مرة منذ الرحيل عن الشمس القديمة. الناس خرجوا إلى السطح ببدلات خفيفة، يزرعون في تربة بدأت تستعيد حيويتها. على المريخ، أُعيد تشغيل المصانع التي توقفت أثناء الرحلة. على زحل، راح خالد يشرف بنفسه على إصلاح الحلقات التي تضررت من الشهب والمعارك. المشتري استعاد أقماره واحداً تلو الآخر إلى مدارات أكثر استقراراً.

سكان عطارد توزعوا على الكواكب الثمانية. بعضهم اختار الزهرة ليكونوا قرب وليد، وبعضهم ذهب إلى الأرض، وبعضهم إلى بلوتو مع شوقي. لم يكونوا لاجئين. كانوا جزءاً من الإمبراطورية التي ضحّى عالمهم من أجلها.

في أحد الأيام، بعد أن انتهت الاجتماعات الرسمية، طلب شوقي مقابلة أشرف على انفراد. التقيا في غرفة مراقبة صغيرة تطل على فم الحوت. الضوء الأزرق كان يدخل من النافذة العريضة ويسقط على وجهيهما.

شوقي صمت وقتاً طويلاً قبل أن يتكلم. عندما تكلم، كان صوته مختلفاً تماماً عن كل الأصوات التي عرفها أشرف منه:

«كنت أكره عطارد. كنت أراه صغيراً، ضعيفاً، غير مهم. كنت أسخر منك لأنك تمثله. والآن.. بعد ما فعلتموه.. أكتشف أنني كنت أحمق طوال حياتي».

نظر إلى الخارج، ثم أضاف:

«الحجم ليس مقياس الأهمية. أنتم كنتم الأخيرين في الطابور، لكنكم كنتم الأولين في التضحية. بلوتو كان سيموت لو لم تفعلوا ما فعلتم. كلنا كنا سنموت».

أشرف لم يرد فوراً. ثم قال بهدوء:

«عطارد لم يكن يبحث عن اعتراف. كان يبحث عن فرصة ليكون جزءاً من شيء أكبر. وقد وجدها».

شوقي مد يده. صافح أشرف هذه المرة دون أي أثر للسخرية أو التوتر القديم.

«إن احتجت أي شيء.. بلوتو مدين لكم».

في الأسابيع التالية، راح أشرف يتجول بين الكواكب. زار المدن الجديدة التي تُبنى على أطراف القباب. رأى أطفالاً يلعبون تحت ضوء فم الحوت الحقيقي لأول مرة في حياتهم. رأى علماء يعيدون تشغيل مراصد قديمة لمراقبة الشمس الجديدة. رأى وليد وهو يشرف على مشروع بحار صناعية على الزهرة، يضحك كما كان يضحك في الأيام الأولى.

في إحدى الليالي، وقف على شرفة عالية في مدينة أرضية. السماء كانت صافية، وفم الحوت يتلألأ في مركزها. خلفه، على مسافات مختلفة، كانت أضواء الكواكب الثمانية تبدو كنقاط حية في الظلام.

همس، كأنه يكمل حديثاً قديماً مع عالم لم يعد موجوداً:

«ها نحن ذا. شمس جديدة، وثمانية عوالم، وحياة تعود من الرماد. الرحلة انتهت.. لكن القصة بدأت للتو».

في الأسفل، كانت أصوات الناس تصل إليه: ضحك، أغاني قديمة تُعاد صياغتها، وخطوات على أرض دافئة. الإمبراطورية لم تعد كما كانت. فقدت كوكباً، وفقدت كثيراً من أبنائها، لكنها وجدت بيتاً جديداً تحت ضوء لم يعد يحتضر.

وفم الحوت، النجم الأبيض المزرق الذي لا يملك كواكب خاصة به، راح يشرق كل يوم على ثمانية عوالم قررت أن تعيش، وعلى ذكرى عالم تاسع اختار أن يموت ليبقى الآخرون.

الفصل العشرون

دورة الكون

مرت السنوات.

فم الحوت لم يعد نجماً جديداً في عيون من يعيشون حوله. أصبح الشمس. الأطفال الذين وُلدوا بعد الاستقرار لا يعرفون شمساً غيرها. يرسمونها في دفاترهم قرصاً أبيض مزرقاً، ويضحكون حين يروي لهم الجدود عن شمس صفراء قديمة تحولت إلى حمراء ثم اختفت في الظلام.

أشرف كان يقف على شرفة عالية في المدينة المركزية على الزهرة. الشعر الذي كان أسود قد صار يخلطه البياض، والوجه الذي حمل توتر الرحلة كلها صار أكثر هدوءاً. إلى جانبه وقف وليد، وفي الجهة الأخرى شوقي الذي لم يعد يسخر كثيراً كما كان يفعل.

تحتهم، كانت المدينة تمتد: قباب شفافة جزئياً تسمح للضوء الحقيقي بالدخول، حدائق، بحار صناعية صغيرة، وأناس يمشون بلا خوف من البرد. في السماء، بدت الكواكب الأخرى كنقاط لامعة في مداراتها المستقرة. ثمانية عوالم. لا تسعة.

أشرف رفع رأسه نحو الضوء الأبيض المزرق. ثم أدار عينيه نحو جهة معينة في السماء، حيث كانت الشمس القديمة موجودة ذات يوم، بعيدة الآن بعد مسافات لا تُقاس بالسنوات الضوئية فقط، بل بالذاكرة.

قال بصوت منخفض، كأنه يحدث نفسه أولاً:

«أحياناً أحلم بها. أراها حمراء كبيرة، تحتضر، ونحن نتركها خلفنا واحداً تلو الآخر. أسمع صوت الاندماج، وأرى عطارد وهو يندفع في النهاية. ثم أستيقظ فأجد هذا الضوء».

وليد وضع يده على الدرابزين.

«هل تندم؟».

أشرف هز رأسه ببطء.

«لا. الندم رفاهية لم نكن نملكها. لكنني أتذكر. أتذكر أن كل شمس التقيناها كانت تخبئ لنا درساً: ألفا قنطوروس علّمنا أن الجمال قد يقتل، والنسر الواقع علّمنا أن الآخرين يصارعون للبقاء مثلنا، وقلب العقرب وإبط الجوزاء والدجاجة علّمونا أن الكون ليس مصمماً لراحتنا. وفم الحوت.. علّمنا أن البيت يُصنع بالثمن».

شوقي صمت قليلاً، ثم قال:

«عطارد كان الثمن. وأحياناً أسأل نفسي: هل كنا نستحق؟».

أشرف نظر إليه وابتسم ابتسامة صغيرة حزينة:

«الكون لا يسأل إن كنا نستحق. هو يمنح الفرصة، ونحن من ندفع. والذين يأتون بعدنا سيرون هذه الشمس كأنها كانت دائماً هنا. سينسون التفاصيل. لكن الدورة ستستمر».

رفع يده نحو السماء الواسعة. النجوم كانت كثيرة، بعضها قد يموت يوماً، وبعضها قد يولد. شموس حمراء وصفراء وزرقاء وبيضاء، وكواكب تدور أو تُترك أو تُحمل عبر الظلام.

ثم أضاف، صوته أكثر هدوءاً كأنما يلخص كل شيء:

«الإنسان قد يرحل من شمس إلى شمس، يحمل معه خوفه وأمله وذكرياته، ويضحي بعوالم كاملة ليبقى. لكن الكون أكبر من رحلاتنا. يستمر في دورته الأبدية، يولد نجوماً ويميتها، ويترك لنا في كل مرة خياراً واحداً: أن نستسلم، أو أن نحاول».

صمت الثلاثة. الضوء الأبيض المزرق كان يسقط على وجوههم، دافئاً وثابتاً. في الأسفل، كانت أصوات الحياة تصل إليهم: ضحك أطفال، خطوات، أغنية بعيدة.

أشرف نظر مرة أخيرة إلى الجهة التي كانت فيها الشمس القديمة، ثم أدار ظهره لها برفق، كمن يودع شيئاً أحبه طويلاً.

وهمس، والكلمات تذوب في الهواء الدافئ:

«إلى اللقاء.. أيتها الرحلة الرهيبة. لقد انتهت. والكون ما زال يدور».

فوقهم، كان فم الحوت يشرق على ثمانية كواكب حية، وعلى ذكرى كوكب تاسع صار جزءاً من الضوء نفسه.

ودورة الكون تواصل دورانها، كما كانت دائماً، وكما ستكون دائماً، حتى يشاء الله.

الفصل الحادي والعشرون

العالم الجديد والحبيبات

مرت خمس عشرة سنة على استقرار الكواكب الثمانية حول فم الحوت.

الإمبراطورية لم تعد تكتفي بالبقاء. راحت تبني. والمشروع الأكبر الذي شغل العلماء والمهندسين طوال عقد كامل كان: إعادة خلق عطارد.

في حزام الكويكبات الغني الذي اكتشفوه على أطراف النظام الجديد، وفي بقايا الشهب التي خلفتها الرحلة والمعارك، جمعوا المواد. ملايين الأطنان من الصخور المعدنية والجليدية والنيزكية نُقلت عبر أساطيل من السفن الآلية. في نقطة محددة بين مداري الزهرة والشمس الجديدة، راحوا يصنعون عالماً.

العملية استغرقت سنوات. أولاً جمعوا النواة: كتلة حديدية-نيكلية ضخمة دُمجت بالحرارة النووية والضغط المغناطيسي حتى أصبحت صلباً واحداً. ثم أضافوا الطبقات الخارجية تدريجياً، يسيطرون على الجاذبية بأبراج دفع مؤقتة، ويثبتون الدوران، ويحقنون الغلاف البدائي. في النهاية، ظهر كوكب صغير جديد: قطره قريب من عطارد القديم، كثافته مشابهة، مداره الداخلي دافئ بما يكفي ليمنع التجمد الدائم، وبارد بما يكفي ليناسب المدن المقببة.

أُطلق عليه اسم «عطارد الجديد». لم يكن نسخة طبق الأصل، لكنه كان ابناً شرعياً للذكرى. سكان عطارد القدامى، الذين توزعوا على الكواكب الثمانية، راحوا يعودون إليه أفواجاً. أشرف نفسه كان أول من هبط على سطحه الصلب الجديد، ووقف طويلاً ينظر إلى الأفق الذي صنعه الإنسان من حطام الكون.

في اليوم الذي أُعلن فيه اكتمال العالم التاسع، أقيم احتفال كبير على سطح عطارد الجديد. حضره القادة الثمانية الباقون، وأشرف الذي أصبح مندوب العالم المُستعاد. وبعد الخطب الرسمية، انسحب الرجال التسعة إلى قاعة زجاجية تطل على فم الحوت، ومعهم حبيباتهم.

كنّ تسعاً، مختلفات كاختلاف الكواكب نفسها.

جلست إلى جانب أشرف امرأة سورية الأصل، اسمها ليلى. شعرها الأسود الطويل، وعيناها اللوزيتان اللتان تحملان هدوء دمشق القديمة وعمق الصحراء. كانت عالمة جيولوجيا، وقد أشرفت بنفسها على طبقات التربة في عطارد الجديد.

بجانب وليد جلست أمازيغية من جبال الأطلس القديم، اسمها تينهنان. بشرتها السمراء الفاتحة، ووشمها التقليدي الدقيق على اليدين، وصوتها الذي يشبه همس الرياح في الواحات. كانت مهندسة طاقة، وهي من صممت جزءاً من أنظمة التدفئة في المدن الجديدة.

شوقي، الذي تغير كثيراً، كان يقف قرب امرأة روسية طويلة القامة، اسمها ناتاشا. شعرها الأشقر الفاتح، وعيناها الرماديتان الباردتان اللتان تدفئان فقط حين تنظران إليه. كانت قائدة سابقة في أسطول بلوتو، وما زالت تحمل الصلابة السيبيرية في ملامحها.

مازن، مندوب المشتري، جلس إلى جانب امرأة أرجنتينية هسبانية لاتينية، اسمها لوسيا. شعرها الفاحم المجعد، وبشرتها الذهبية، وضحكتها العالية التي تملأ القاعة. كانت طبيبة أوبئة، وقد أنقذت الآلاف أثناء سنوات الظلام الطويل.

عادل، مندوب الأرض، رافقته امرأة من السكان الأصليين لأمريكا القديمة، اسمها نايلا. ملامحها الحادة الهادئة، وشعرها الأسود المضفر، وعيناها اللتان تحملان ذاكرة السهول والأنهار. كانت مختصة في الزراعة المائية، وهي من أعادت الخضرة إلى أجزاء من الأرض الجديدة.

خالد، الرئيس العجوز الذي أبيض شعره تماماً، كان يجلس بهدوء بجانب امرأة ألمانية، اسمها إيلزه. دقيقة، صارمة الملامح، ذات شعر ذهبي قصير وعينين زرقاوين واضحتين. عالمة فيزياء نظرية، وهي من ساهمت في حسابات المدارات النهائية حول فم الحوت.

بجانب ماجد المريخي جلست امرأة إيطالية، اسمها صوفيا. شعرها الكستنائي المتموج، وعيناها الخضراوان اللتان تضحكان قبل الفم. كانت فنانة ومهندسة تصميم مدن، وقد حولت القباب الجديدة إلى أماكن جميلة لا تشبه السجون الحرارية القديمة.

تامر، مندوب نبتون، رافقته امرأة يابانية، اسمها يوكي. هادئة كالمياه العميقة، شعرها الأسود الناعم، وحركتها الدقيقة المحسوبة. كانت خبيرة في الذكاء الاصطناعي والأنظمة الحاسوبية الضوئية التي تُدير أبراج التحكم.

وأخيراً، بجانب أمير مندوب أورانوس، جلست امرأة زنجية طويلة القامة، اسمها أمينة. بشرتها الداكنة اللامعة، وشعرها القصير المجعد، وعيناها السوداوان القويتان اللتان لا تخافان النظر. كانت قائدة قوات خاصة خلال المعارك، وما زالت تحمل على كتفها ندبة قديمة من معركة النسر الواقع.

الرجال التسعة وحبيباتهم وقفوا معاً أمام النافذة الكبيرة. ضوء فم الحوت كان يسقط عليهم جميعاً، مختلفاً على كل بشرة، متحداً في الدفء نفسه.

أشرف نظر إلى عطارد الجديد تحتهم، ثم إلى النساء التسع، ثم إلى رفاقه القدامى. قال بصوت هادئ يسمعه الجميع:

«العالم التاسع عاد. ليس كما كان، بل كما صنعناه بأيدينا. والرحلة التي بدأت بالخسارة.. تنتهي اليوم بصنع حياة جديدة».

ليلى السورية وضعت يدها على ذراعه. تينهنان الأمازيغية ابتسمت لوليد. ناتاشا الروسية لمعت عيناها نحو شوقي. والأخريات راحن ينظرن إلى رجالهن وإلى الشمس البيضاء المزرقة التي لم تعد غريبة.

في السماء فوقهم، كانت الكواكب التسعة الآن تدور معاً من جديد.

ودورة الكون، التي لا تتوقف، راحت تكتب صفحة أخرى.

وفي زاوية من القاعة، بعيداً قليلاً عن دائرة القادة، جلست نجوى قائدة الأسطول. لم تعد ترتدي الزي العسكري الكامل، لكن قامتها المستقيمة ونظرتها الحادة لم تتغيرا. إلى جانبها جلس زوجها: رجل هندي هندوسي اسمه راجيش، مهندس دفع نووي من أصول قديمة في شبه القارة. كان هادئاً، ذا بشرة سمراء وعيون داكنة عميقة، ويرتدي على معصمه خيطاً أحمر رفيعاً من تقاليد أهله. يدها كانت في يده، وهما يتابعان الحديث بصمت متفاهم.

أما د. سارة، عالمة الفيزياء النووية التي رافقت الخطة منذ أيامها الأولى، فكانت تقف قرب النافذة الكبيرة. لم تتزوج رسمياً، لكنها كانت تعيش منذ سنوات مع رفيقها الإيراني الزرادشتي، كيان. رجل طويل القامة، ملامحه فارسية واضحة، وشعره الأسود

يختلط به بعض الشيب. كان يعمل في أبحاث الطاقة النظيفة، ويحمل في داخله فلسفة قديمة عن الصراع بين النور والظلام. هما لم يحتاجا إلى عقود مكتوبة؛ كان وجودهما معاً كافياً. سارة مالت قليلاً نحو كيان وهو يشير إلى عطارد الجديد تحتهم، وابتسمت ابتسامة نادرة.

الضوء الأبيض المزرق لـفم الحوت كان يسقط على الجميع: على البشرات المختلفة، والشعر الأسود والأشقر والداكن، والعيون اللوزية والزرقاء والرمادية والسوداء. تسعة حبيبات للقادة، ونجوى مع راجيش الهندوسي، وسارة مع كيان الزرادشتي.. كلهم تحت شمس واحدة صنعوا طريقهم إليها بالدم والخسارة والأمل.